الكتاب الثالث

١٧ يوليو – ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٨

obeikandl.com

obeikandl.com

بين بور سعيد وجنوا

أترانى أتحدث مرة أخرى عن الطريق بين مصر وأوربا ؟ وأى جديد أقول فى الماء والسماء ورفاق السفر وما قد يتخلل ذلك من صحو فى الجو أو هياج فى البحر أو دوار يصيب الراكبين أو مرح يلهو به كل ليقطع أيام البطالة والكسل ؟ على أنى شعرت فى سفرى هذا الأخير بين بورسعيد وجنوا بحالات نفسية لم يكن لى من قبل بها عهد . ولست أدرى إلى أى سبب أردها ؛ فلقد كان البحر هادئاً والجو صفواً طول الطريق . والباخرة الألمانية « أوزارامو » باخرة عادية فى كل شىء فيها ، وفى ركابها أكثر من كل شىء فيها . فماذا عسى أن تكون المؤثرات التى دفعت إلى نفسى تفكيراتها فى هذا السفر ؟ أهى الموسيقى الألمانية التى كان يلعبها موسيقارو الباخرة طول الطريق ؟ أم هى قراءتى ماكتبه « جول لمتر » عن « لا مارتين » ، وما كتبه « إدوار شوريه » عن « موسى » ؟ أم هى حاجتى إلى التفكير فى شىء غير المضطرب السياسى الذى خلفته ورائى فى مصر ؟ أم هو هذا الضعف الثائر الذى يملأ النفس إثر المرض وإثر الحوادث ؟ لست أدرى أى هذه العوامل أكبر أثراً فى نفس كانت فى حاجة أشد الحاجة إلى الراحة من التفكير ومن الحركة ومن كل صور النشاط العصبى ، كى تستعيد بالراحة قسطاً من نشاط فتر فيها قبيل مغادرة مصر ومغادرة العمل . ولعل الموسيقى كانت أكبر العوامل أثراً . فما عرفت فى كل البواخر التى سافرت عليها واحدة كهذه الباخرة الألمانية تسمع فرقة على ظهرها من الموسيقيين المتقنين فى الصباح وبعد طعام الغداء وساعة الشاى وبعد العشاء توقع أحسن الألحان لأكبر المنشئين ، فتملأ نفسك كل يوم مدى ثلاث ساعات أو تزيد بأحلى الأنغام وأبدعها وبأكثرها سموًّا بك فوق المطامع الدنيا إلى عالم روحانى تنهل عواطفك العليا منه أعذب ورد ، ويتهادى فؤادك فيه فوق موج هادئ حيناً ، مضطرب آخر ، ساكن ثالثاً ، سابح بروحك وبنفسك فى لجة من عذب النغم .

ما عرفت مثل هذه الفرقة فوق كل البواخر التى سافرت عليها . وكل ما أذكر أنى سمعته من موسيقى ، فتلك أنغام الرقص الحديث يوقعها خدم الباخرة ليتسلى بها الركب سويعة ، وليساعدوا بها مِعَدهم على هضم طعام العشاء . ولست أنكر رغبتى عن موسيقى الرقص الحديث هذه وما تشنف به المسامع أنغام الجازبند والشارلستون وغيرها مما لا أذكر له مثيلا قبل الحرب ،

ومما أنشأته الحرب إرضاء لشهوات الجماهير ثمناً لفضلها فى القتل والقتال دفاعاً عن الوطن . فهذه الجماهير لم تكن لتسيغ الموسيقى « الكلاسيك » ، ولم يكن يحلو لها تجارب نغم الأجسام فى رقص الفالس وغيره . ولم يكن المؤلفون يعنون يومئذ بإرضاء هذه الجماهير التى كانت قانعة بالعيش فى بقعة الأرض التى ولدت فيها ، سعيدة بهذا العيش أكبر السعادة ، زاهدة فى الموسيقى وفى الرقص وفى كل ألوان الترف ، ناظرة إليها جميعاً على أنها بعض آثار البطالة مما يتسلى به الأغنياء الفارغون على ملال الوقت . فلما آن لهذه الجماهير أن تخرج من أوكارها إلى ساحات القتال ، وأن تبدى من البطولة فى الدفاع عن أوطانها ما أبدت فى الحرب الكبرى ، لم يكن بد من أن تعلو الأنغام التى تلذ الجماهير ولو إلى حين ينسى فيه الناس الحرب وما تطلعت إليه العيون من شهوات الإنسان الدنيا إلى حد التلذذ بالسفك وإراقة الدماء . ثم تعود بعد ذلك الموسيقى الإنسانية إلى مكانتها من النفوس الراقية . ولست أنكر أن من حق الملايين التى استماتت فى الدفاع عن أوطانها ، والتى استهانت لذلك بالموت ، أن تنعم بما يرضى شهواتها على عجل ، خيفة أن يجيئها الموت قبل أن ترضى هذه الشهوات . لكن ذلك لا يمنعنى من أن أرغب عن تلك الموسيقى .

أنا أرغب عنها وإن كنت أرى الجماهير تتحرك لها وتطير إليها ، لا بالنفوس والأسماع وكفى ، بل بالأجسام والأرجل أيضاً . وإذا طارت الجماهير إلى شىء لم يستطع كثيرون أن يقفوا دون مجاراتها والإعجاب بها . أليست الجماهير هى قوة الحياة البريئة السليمة من أمراض التفكير والرفاهية والتسامى بالنفس أو بالروح أو بالعاطفة أو بغير هذه من المشاعر التى أحس بها المتعلمون والمترفون ، أوادّعوا — فى نظر البعض — أنهم أحسوا بها ؟ ومن ذا يستطيع أن يقف أمام تيار قوة الحياة البريئة من هذه الأمراض ! بل من ذا يستطيع تجنبها والازورار عنها وعدم متابعتها إلا رجل لا يزال يقدر للتفكير وللروح وللعاطفة قيمتها ويراها فوق المستوى العادى ، فليس يليق بصاحبها أن ينزل إلى هذا المستوى من غير أن ينكر نفسه .

على أن فرقة « الأوزارامو » لم تضن على السَّفْر بليلة تحييها رقصاً من هذا الرقص الحديث . وفى هذه الليلة وقفت أشهد الراقصين وأسمع لأنغام الموسيقى . ما أكبر الفرق بين هؤلاء الأشخاص الذين أرى الآن يرقصون وبين هؤلاء الأشخاص أنفسهم إذ يستمعون إلى الأنغام السماوية يحيى بها الموقعون أسماء كبار الموسيقيين من أهل القرن الماضى ! بل ما أكبر الفرق بين نفسى وأنا أراهم وبين نفسى وأنا أسمع لتلك الموسيقى السماوية : ها هم أولاء أمامى

يرقصون ، وهأنذا أشهدهم وأسمع إلى موسيقى تعيد إلى نفسى ذكر « دلوكة أبى الودع » فى قرى الريف . انظر إلى شفاههم تبسم طرباً للساعة التى هم فيها بسمة لا تخلو من معنى قوى فيه رغبة وفيه وحشية . وانظر إلى حدق عيونهم ليس فيه معنى من معانى الأمل ولا هو يرنو ندباً إلى بعيد فى عالم الأمانى ، بل هو يضحك سعيداً باللحظة الحاضرة ناسياً فيها كل ما سواها ، شأن الحيوان جميعاً لا يعرف الماضى ولا المستقبل ؛ لأنه لا يذكر ولا يرجو ولا يتمنى . ثم انظر إلى هذه الحركات ، حركات الأجسام والأرجل ، وما أظنك إلا تشاركنى فى أنها لا تعبر عن أنغام الأجسام فى صورة تغتبط لها المعانى السامية . انظر إلى هذا كله وانظر إلىّ أنا أيضاً ؛ فأنا أضحك ملء أشداقى ، ولا أعرف من كل ما حولى غير هذا المنظر الساذج فى براءته الحيوانية ، والذى يجذبنى إليه لأنه يثير من نفسى ميلها إلى الراحة . وهل أدعى إلى الراحة من أن أقف العقل فلا يفكر ، والنفس فلا تحلم ، وأن نستسلم بكلنا لحواسنا المشغولة بما أمامها من لهو الحاضر ! .

هأنذا الآن أستمع من جديد مع هؤلاء الأشخاص الذين كنت أشهدهم يرقصون إلى الموسيقى بالمعنى الذى تفهمها به الإنسانية السامية . انظر إلى حدق العيون وبسمات الشفاه تر الماضى وذكرياته ، وتر المستقبل وآماله ، وتر المعانى الإنسانية مرتسمة على كل جبين . هنا مسارح الأمل ولواذع الألم ، وهنا يتصل الإنسان بالوجود اتصالا روحيًا خالصا .

أنت هنا لا ترى غرائز تحركها الأنغام الوحشية ، ولكنك ترى أرواحاً تستحيل أنغاماً وتذهب مع الأنغام إلى حيث يريد مؤلفها أن تذهب . إن هذه الموسيقى لا تنسيك نفسك ، ولا تنسيك الماضى والمستقبل لتقيدك باللحظة الحاضرة . كلا ! إنها لتوقع من نفسك على أوتارها التى تكونت فى الماضى والتى ترجو للمستقبل ، فتستثير من هذه الأوتار معانى ما أشدَّ ما تشعر أنت بالحاجة إلى التعبير عنها ، فتعجز الكلمات وتعجز الأصوات عن أدائها غير صوت الموسيقى الشجى الحنون .

أترى ؟ ! لقد أنستنى الموسيقى نفسى ، وأنستنى ما قصدت إلى كتابته . وهذا الذى أشرت إليه عما شهدت فى ليلة الرقص التى أحيتها فرقة « الأوزارامو » لما يأت موضعه . فليلة الرقص هذه كانت ليلة السبت ونحن ركبنا الباخرة ليلة الأربعاء . وفيما بين الأربعاء والسبت قرأت وفكرت واطمأنت نفسى إلى أن أكتب شيئاً عن هذا السفر . والمقارنة بين موسيقى الرقص الحديث والموسيقى الإنسانية ، وأن الأولى بعض نتائج الحرب ، لم تكن بنت ليلة السبت بل كانت سابقة لها . لكن الموسيقى هى أول ما لقينى فى تلك الباخرة الألمانية ساعة صعدت إليها

فى ساعة الشاى ، وساعة عدت إليها فى المساء بعد وقت قضيته فى بورسعيد فى صحبة خير صحبة . والموسيقى ساحرة ، فليعذرنى القارئ إذا أنا سُحرت ونسيت نفسى فى حديثها وفى المقارنة بين ما قارنت بينه منها .

ثم لعل على الموسيقى بعض التبعة فى تأثرى بما تأثرت به من بعد . فلست أعهد نفسى سريعة إلى الطيرة ولا إلى التفاؤل . وليش يسيغ عقلى أن يكون لحادث يقع نبوءةٌ بحادث بعده لاصلة له به . مع هذا فقد تحطم زجاج إحدى نوافذ الباخرة فى يوم الأربعاء ، فإذا أعصابى تهتز وإذا بى أتطير . ولماذا ؟ ما علاقة نافذة تحطم زجاجها بالحوادث التى تقع بعد ذلك ؟ أريد أن أعزو هذا إلى شحذ الموسيقى لنفسى . ولعلى أجد فى ذلك عذراً خيراً من العذر الصحيح ، خيراً من أن أعصابى كانت مجهودة ساعة تركت مصر إلى حد أن هبطت إلى مستوى من لم تهذب أعصابهم . فهبطت إلى التأثر بما به يتأثرون ، وإلى الإيمان بما به يؤمنون .

ولقد أضحك الآن من نفسى إذ أذكر جهادها لتصل بين هذا الحادث وحادث آخر وقع فى يوم الخميس ؛ فبينما الجو صحو فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم والبحر ساكن والشمس تنعكس أشعتها على صفحة الماء ، إذا ضباب يهبط دفعة واحدة حتى حجب الشمس وملأ الجو بريح كريح الدخان ، ثم إذا بنا فى ظلمة لا يبصر الإنسان معها شيئاً ، حتى لقد اضطر ربان السفينة إلى أن يطلق فى الجو صفارته ليسمع البواخر التى يمكن أن تكون على مقربة منا ، فلا ترتطم بنا ولا تذهب أرواحنا وأرواح سَفْرنا إلى قاع البحر . هنالك تصورت الموت حائماً خلال هذا الضباب الكثيف ، وذكرت زجاج النافذة المحطم ، وأيقنت بأنه سيصيبنا . ولا شك ، مكروه ، وأسلمت أمرى لله ، إليه تصير الأمور . والمسافرون غيرى فى مرح كأن لا ضباب يجثم الموت خلاله ، وكأنهم لا يذكرون النافذة التى تحطمت ، فأعجب لهم وما يصنعون . واستمر قتام الجو ساعة كاملة كان صفير الباخرة ، أو نحيبها إن شئت ، يعلو بين فترة وفترة اتقاء الخطر ، أو كأنها تستمطر الرحمات على هذا الجدث السابح سيبتلعه الموج عما قريب . فلما تكشف الجو عاودتنى سكينة مشوبة بالخوف . من يدرى ! أليس الإنسان يسير فى الطريق فيدهمه أوتوبيل قد يقضى على حياته وقد يصيبه بمكروه ؟ وقد تصطدم الباخرة وسط هذا الضباب فلا ندرى أينا ينجو وأينا تبتلعه رحمة الله .

أضحك الآن ، بعد يومين اثنين ، من تفكيرى فى تلك الساعة . ولا عجب من ذلك التفكير ولا من هذا الضحك . فأربعة أيام فى جو كهذا الجو البديع الذى تخطر الباخرة

فوقه قمينة بأن تعيد النشاط والقوة إلى أضعف الأعصاب ، وإلى أعصابى التى كانت مضناة ساعة غادرت مصر . على أن هذه اليقظة العصبية بعد ذلك الحادث اصطحبت بقراءة من شعر « لامارتين » وبأخرى عن حياة موسى ، فجعلنى ذلك كله أفكر فيما حولى من لا نهايات لا تحدها الآفاق تفكيراً أشرك القارئ فيه وأترك له حرية تقديره ، معتذراً له دائماً بأنى ربما كنت ما أزال فى حالة فكرية كتلك الحال العصبية التى ضحكت منها .

يعرف القراء مقدمة كتاب الرحالة الكبير أحمد بك حسنين عن رحلته خلال صحراء ليبيا . وكل من يعرف هذه المقدمة لا يستطيع أن ينسى هذه الصحف البديعة الخالدة التى دبجها يراع حسنين عن الإيمان سنداً للنفس وسط الصحراء . هذا الإيمان الذى يعتمد عليه راكب الصحراء أكثر من اعتماده على إبله ؛ لأن الإبل قد تنفق ، وأكثر من اعتماده على دليله لأن الدليل قد يضل ، والذى يحبب إليه الموت فيها لأنه موت فى أحضان الرحمن الرحيم – هذا الإيمان هو الذى كنت أفكر فيه حين كنت أقرأ شعر لامارتين وحياة موسى ، وحين كانت تهبط كسف الضباب فتملأ الجو وتحجب عن عيوننا ذلك الحيز الضيق المتصل بيننا وبين الأفق ، وتعرِّضنا بذلك للخطر وللهبوط إلى قاع البحر بين الأسماك .

ولكن ما أكبر الفرق بين إيمان وإيمان ! . ما أكبر الفرق بين إيمان بالحب العطوف الرفيق يصل بين الخلائق بعضها وبعض ، ويصل ما بين الحاضر والماضى والمستقبل ، وإيمان بالعدم يبتلع الأشياء فى جوفه الأسود فلا يبقى منها ولا يذر ولا يصل بين شىء منها والشىء الآخر بصلة ، وإيمان عبوس بالقدر القاسى فيه العذاب وفيه الألم وفيه الانتقام تمتد أيديها الملتهبة لتحرق ما فى الأرض وما فى السماء فتذرها هشيما تذروه الرياح . دع عنك هذا الإيمان بالعلم إيماناً خلاصته أنَّا لا نعرف من العالم إلا قليلا ، وأنا يجب أن نحتاط فلا نقامر بعقولنا ولا بنفوسنا فى مجاهل ما لا نعلم .

وبين هذه الصورة من الإيمان ذكرت تاجور شاعر الهند ، وذكرت شخصه المهيب المحترم ، وصوته العذب الملائكى الذى يسيل محبة ورحمة . الإيمان والعلم خصيمان ؟ ولماذا ؟ الإنسان والوجود خصيمان ؟ ولماذا ؟ . الحياة والموت خصيمان ؟ ولماذا ؟ أليس ذلك كله بعض ما فى الوجود ؟ وكيف يكون البعض خصيما لكلٍّ هو منه ولا حياة له إلا به ؟ وهل كان للناس أن يصلوا إلى العلم الذى وصلوا إليه لو لم يسبق العلم إيمان ؟ فإذا هم جمعوا إلى علمهم اليوم إيماناً أوسع مدى وأسمى غاية من إيمان أسلافهم فقد يصبح بعض هذا الإيمان علماً فى المستقبل ، وقد يرتفع بهم وبإيمانهم درجات جديدة . ولم لا ؟ أليس للوجود وحدة

كما أن لكل ذرة من ذرات الوجود وحدة ؟ وكيف نأبى على الكل صفة نعترف بها لجزء منه ؟ وإذا لم نكن نحن قد بلغنا من العلم إلى معرفة دقائق وحدة الوجود هذه ، فنحن نستطيع أن نحسها وأن نقدرها ، وأن نؤمن لذلك بها كما آمن آباؤنا من قبل بأشياء أصبحت بعض ما يحيط به علمنا إحاطة تامة نعرف منه كل سننه وقوانينه ، فليكن من عمل المفكرين منا أن يفكروا فى الوجود كوحدة ، وفى صلة هذه الوحدة بأجزائها صلة نظام ورفق كالذى نراه فى صلات الموجودات جميعاً . وهم ، ولا ريب ، مهتدون فى مستقبل قريب أو بعيد إلى شىء من سنن وحدة الوجود على صورة علمية إن لم يتح لهم الاهتداء إليها جميعاً على هذه الصورة العلمية .

* * *

كذلك كنت أفكر صباح الجمعة . فلما كانت الظهيرة وتناولنا طعام الغداء ، وسمعنا إلى الموسيقى وفكر البعض فى الهبوط إلى مضاجعهم ؛ إذا برجال الباخرة يوزعون على الناس قبعات من ورق صنعت على أشكال مختلفة ، بعضها صينى وبعضها هندى وبعضها تركى وبعضها تيجان للسيدات تلمع فيها أحجار كما يلمع الألماس . ما هذا ؟ ذلك ما لم أعرفه لساعتى ؛ لأنى ركبت الباخرة من بور سعيد . فأما الذين استقلوها من قبل ذلك بأسابيع فيعرفون أن ليلة السبت ليلة راقصة هى التى حدثتك من قبل عن موسيقاها . وهى ليلة راقصة فى ملابس الخفية .

وأنت تعرف كيف يفتنُّ الأوربيون فى ملابس الخفية . لذلك اتخذ كل من القبعات التى أشرت إليها ما يتفق وما عنده من لباس ، واستعدوا بذلك لحفلة المساء . فلما كنا ساعة الطعام إذا كل قد استبدل بملابس السهرة ملابس عجيبة . فشيخ عرب و« قبضاية » وصينى ، وآخرون اكتفوا بالقبعات التى اختاروا ساعة الظهر . فأما السيدات فافتنت كل منهن ما استطاعت ، وبلغ بعضهن من ذلك حدًّا بدا على غرابته جميلا ، وبلغت أخريات من التستر حدًّا ظريفاً . واجتمع الرجال والنسوة من الدرجتين الأولى والثانية بعد أن استمتعوا بعشاء خاص فى هذه الليلة الخاصة . ودقت الموسيقى ودار الرقص ، ونسى الناس أنفسهم فى هذه اللحظة التى لاتعود إلا كل أسبوع مرة . ولهم عن هذا النسيان العذر . ليس بعضهم قد قضى على سطح البحر ستة أسابيع فى حين قضى آخرون ثمانية وغيرهم عشرة ! فماذا تراهم يصنعون ؟ ! ألا لو أنهم كانوا فلاسفة لوجدوا فى تشابه الحياة حولهم ما يزهد فى الحياة وفى الفلسفة بعد هذا الزمن الطويل . ما بالك وأكثرهم من رجال المستعمرات الإنجليز والألمان

ممن يعودون إلى بلادهم ممتلئة نفوسهم إليها حنيناً وشوقاً ! هم إذن فى حاجتهم إلى اللهو مفعمون بالليلة الراقصة سروراً ، وهم إذن فى هذه الحال الساذجة التى وصفت لك .

وفى صباح السبت عدت أسائل نفسى : ما مكان هؤلاء الراقصين فى نظرية وحدة الوجود ؟ وإذا مكانهم فى هذه النظرية أمتع مكان . أليسوا هم الإنسانية مصغرة وحدتها الكبرى ! فهم لا يعرف أحدهم الآخر من قبل إلا على أنه إنسان لا يعنيه من أمره أهو غنى أو فقير ، عظيم أو حقير ، كما لا يعنيه من أى جنس هو . بينهم الإنجليزى الحاكم فى جنوب إفريقية ، والبلجيكى المستعمر فى الكونجو ، والألمانى المقيم فى إفريقية مالكاً لقطعة أرض ضيقة أو واسعة بعد أن كان قبل الحرب سيداً للمستعمرات الألمانية الإفريقية حتى انتزعها الحلفاء قسراً من ألمانيا . وإلى جانب هؤلاء جميعاً جماعة من الذين استوطنوا إفريقية ، فهم إنما يغادرونها إلى أوربا كما نغادر نحن مصر طلباً للراحة أو الاستشفاء وحرصاً على الوقوف على أحدث صور حضارة الإنسان . هؤلاء جميعاً وغيرهم معهم اجتمعوا فى ملابس الخفية يحيون ليلة راقصة وهم يرقصون على أنغام الموسيقى ، سواء أكانت هذه الموسيقى دلوكة العبيد أم كانت أرقى صور الفالس ، فإن الأنغام تتصل بنفوسهم وهى التى تحركهم . تتصل بنفوسهم وتصبح جزءاً من مجموعهم ومن هذه الوحدة التى تمثل الإنسانية مصغرة . وقد لا أعدو الحق كثيراً إذا ذكرت أن هذه الوحدة من الموسيقى والكهرباء والناس ما كانت لتكون لولا أن السفر على الباخرة وفوق سطح البحر . وإذن فالباخرة والبحر بعض هذه الوحدة . وبين هذه المكونات للوحدة جميعاً رابطة تربطهم هى الجاذبية ، إذا اخترت تعبير علماء الطبيعة ، وهى التقارب Des Affinites إذا اخترت تعبير علماء النفس ، وهى الحب إذا سموت بهذه الكلمة إلى معناها الروحانى تعبر به عن سر الحياة الذى يربط الكائنات جميعاً إنساناً وجناً وملائكة ، أرضاً وسماء وأثيراً ، صراطاً وجنة وسعيراً ، برابطة القربى والمودة والوحدة التى تبعث فيها الروح وتبعث فيها الحياة .

وأصبحنا يوم الأحد وللسفْر جميعاً حديث واحد : اليوم سنرى فى طريقنا جزيرة « ألبا » حيث نفى نابليون لأول مرة ، ومنها عاد ليرتقى عرشه ثانية فى فرنسا حتى يهوى نجمه فينهزم فى واترلو وينفى أخيراً إلى جزيرة القديسة هيلانة . واليوم نستعيض بمرأى جزيرة « ألبا » عن مرأى جزيرة كورسكا مسقط رأس نابليون . وكذلك اتصلت النفوس فى هذا الجو المطمئن الساكن بروح قوية عاصفة سخرت العالم لشهواتها منذ أكثر من قرن من الزمان ، وتختلف هذه الفترة عن غيرها من فترات التاريخ لا لشىء إلا لذكرها هذه الجزر التى شهدت

مثل هذا الدور من أدوار التاريخ . وظللنا كذلك طيلة النهار تتبدى لنا بين وقت ووقت شبهات من الأرض يذكر الربان أن بعضها مصب « التبر » حيث تقوم المدينة الخالدة روما العظيمة ، وأن الآخر نتوء من إيطاليا وسط البحر ، حتى إذا قاربت الساعة الثامنة من المساء وآن للشمس أن تنحدر فى مغيبها كانت « ألبا » قد تكشفت لنا وما كدنا نتم تناول طعام العشاء .

انظر إلى الشمس تنحدر فى مغيبها وتخلف بعدها ألواناً مختلفة من برتقالى وبنفسجى ! وانظر إلى هذا الهلال الوليد يحبو على استحياء فى لجة السماء ويرقب « ألبا » وإيطاليا وأضواءهما التى بدأت تظهر فى جوف الليل الساجى وما تزال موليات الضياء تغالب سواده ! ثم انظر إلى مياه البحر ! لقد كان البحر فى أثناء سياحتنا كلها جميلا رفيق الموج حلو النسيم . لكنه الليلة ملائكى وأكثر من ملائكى . يسرى النسيم منه فوق صفحة مصقولة صقل المرآة أو هى أصفى ، تنعكس عليها تلك الأشعة المتعاقبة الألوان مما خلفت الشمس ساعة مغيبها ، وتندمج فيها الشعاعات القليلة التى يحاول الهلال أن يبعث بها من سمائه . والليل يطارد النور ويطرده ، فتبدو أنوار « ألبا » مبعثرة كأنها النجوم ألقى بها فى الماء . أنوار يقف عندها نظرك وانتباهك وسمعك وقلبك وكل حواسك ، وتنسيك نابليون والتفكير فيه ، والتاريخ وصفحاته ، والماضى والمستقبل ، وكأنما هى والماء والنسيم والهلال وكل ذلك المنظر الساحر ينسكب فى نفسك انسكاباً ويجرى فى روحك عذباً سلسبيلا . ويدور الناس إلى الجانب الثانى من الباخرة ليروا شاطئ إيطاليا وفناره وأنواره ، وإذا « ألبا » تجذبهم إليها من جديد ، كأن النسيم إلى ناحيتها غير النسيم إلى الجانب الثانى ، وكأن روحها التى حسبنا أنا نسيناها فى جمال الوقت ، هذه الروح التى قويت بقوة نابليون واشتدت جاذبيتها بشدة جاذبيته ، لها على كل ما يحيط بها من بحر وقمر ونسيم وناس سلطان ليس لأحد دون الولاء له سبيل .

ما بال البحر فى الليلة الأخيرة من ليالى سياحتنا يلبس كل زخرفه ويزدان ، كأنما يريد أن يكفر عن هياج منه سلف ، وما كان خلال رفقته إيانا إلا أرق صاحب وألطف عشير ! أم مثله فى ابتسامته هذه الساحرة كمثل الفاتنة تودعك بابتسامة أشد فى نفسك فعلا من ابتسامة اللقاء ، لتكون بهذه الابتسامة أسيرها ، فلا تبرح طول بعدك عنها عن التفكير فيها واللهفة على ساعة لقائها .

وكلما فكرنا فى مغادرة « ألبا » لنستريح ، خفنا أن تتخطى الباخرة الجزيرة الساحرة

وقد فاتنا من سحرها كثير أو قليل . فلما بدأت تبعد عنا جعلت أنوارها تتدثر فى جوف الليل رويداً رويداً ، حتى صارت شبحاً ، فخيالا ، فوهماً ، فماضياً نذكره مغتبطين بذكره . هنالك أخذنا مجالسنا إلى جانب زوجين بلجيكيين لهما على الباخرة ثلاثة وعشرون يوماً ، قصا علينا عن سياحتهما وعن الكنجو البلجيكية شيئاً غير قليل . ثم قمنا جميعاً إلى مخادعنا نعد متاعنا للنزول به فى الصباح الباكر إلى جنوا .

ودخلت الباخرة الميناء والسفر لا يزالون نياماً . فلما علونا سطحها قابلتنا البواخر الكثيرة متراصة متزاحمة ، وفاجأت نظرنا مبانى الميناء ، فأخرجنا ذلك من طمأنينة السكينة إلى جلبة ما كان أحلى الفرار منها والبعد عنها ! ورست السفينة فإذا المستقبلون من أجناس مختلفة يتحدثون بلهجات ولغات مختلفة ، ويقصون من أخبار تجارة الحياة ما ينسى التفكير فى وحدة الوجود ، ويعيد الذهن إلى نطاق ضيق من التفكير فى الإنسانية أمماً وأفراداً تتنافس وتتباغض ويفنى بعضها بعضاً . ثم انحدرنا إلى جنوا وأقمنا بها يومين لقينا فيهما من لهيب القيظ ما وددنا معه لو أنا أقمنا على ظهر الباخرة حتى « سوذامبتن » أو « رتردام » أو « هامبور » » . لكنا لقينا فى جنوا أنيساً أنسانا ظرفه قيظها حتى حين حديثه عن قيظها . ولقينا فيها صورة أخرى من صور وحدة الوجود أشد للنفس أخذاً من كل ما أجاله البحر فى ذهنى من خواطر . وإذ انقطع رجاؤنا فى أن نجد بإيطاليا غير القيظ المحرق ، فقد تركناها بعد هذين اليومين إلى سويسرا ، آملين أن نجد فى جوها وفى جبالها وفى جمالها ما يعيد إلى النفس السكينة التى عرفت أيام سفر البحر ، والتى نسيت فى جنوا من شدة القيظ الذى زاد فى رطوبته وثقله على قيظ مصر .

جنوا – برن

وحدة الوجود أيضاً

هذه جنوا وشوارعها المرصوفة بالبلاط المتصاعدة من شاطئ البحر رويداً رويداً أحياناً ، المتمردة أحياناً أخرى حتى لتضطرك أن ترتقى أسبابها بسلم . وهذه العربة تجرى بنا وبمتاعنا وسط طرق المدينة القديمة الضيقة حتى ما تكاد تتسع لعربتين ، ومع ذلك يقوم على جانبيها أفخم المبانى وأكثرها عظمة وجمالا . وتجتاز العربة هذه الطرق إلى ميدان واسع كبير ، فيه بناء أوبرا المدينة ومتحفها الأكبر ، ومنه شقت الطرق الحديثة المتسعة . ثم ها هى ذى تقف بنا أمام فندق « برستول » فى شارع ٢٠ سبتمبر . فيصعد رجاله إلى إحدى الغرف بمتاعنا ، ومنه نتحدث إلى القنصلية المصرية لنجد فى القنصل خير عون لنا فى مدى اليومين اللذين أقمناهما بالثغر الإيطالى القديم .

أتدرى لماذا جعلت جنوا فاتحة طريقى إلى أوربا هذا العام ؟ لقد أذكر لك سبباً له قيمته على بساطته ، ولكنه فى الحقيقة ليس كل السبب . ذلك أنى رأيت أن أغير ما استطعت الثغور التى أصل عن طريقها أو أغادر منها أوربا ، لكى أرى من هذه الثغور وأقف من الطرق التى تتصل بها على ما يزيدنى بأوربا معرفة وبصور بلادها علماً . ذلك هو القصد الظاهر – على حد تعبير القانونيين – من تصرفى . لكن سبباً آخر أقوى بكثير من هذا ، هو الذى جذبنى إلى ذلك الثغر . سبباً جعلنى ألزم نفسى السفر عن طريقه أو العودة منه هذا العام . ذلك أنى منذ زرت مقبرة ميلانو من سنتين مضتا ورأيت فيها تلك التماثيل الحزينة الناطقة بآلام الإنسان لفقد أعزائه ، والتى يسيل فيها الحجر عبرات ودموعاً سخينة ، حتى لكأنما تسرى إلى جموده أشجان القلوب الكليمة من ذلك اليوم نذرت زيارة جنوا لزيارة مقبرتها . أليس الذين رأوها يتحدثون بعظمتها ويذكرون أنها أكبر المقابر ، وأن تماثيلها أفصح التماثيل نطقاً وأبلغها عبارة عن آلام النفس عند فراق الأعزة ! فكيف لى ألا أزورها ، وألا أجدد فيها عهوداً مضت ، وألا أذكر فيها من جديد قول الشاعر :

لقد لامنى عند القبور على البكى رفيقى لتذراف الدمـوع السوافك
وقال : أتبكى كل قـبر رأيتـــه لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك ؟ !
فقلت له : إن الشجا يبعث الشجا فدعنى فهذا كلـــه قبر مالك

لذلك ما لبثت أن سألت عن « الكامبوسانتو » وأن ذهبنا إليها نذكر فيها غيرها من المقابر ، ونذكر فى تماثيلها تماثيل مقبرة ميلانو . وليس فى جنوا إلا من يدلك على « الكامبوسانتو » أين هى . وهل بين الأحياء من لا يعرف مقره الأخير والمقر الأخير لأحبته وأعزته من قبله ! وهل بينهم من لم يذرف الدمع الغزير على قبر من القبور !

ووقفنا على باب المقبرة العظيمة خشعاً تملأ قلوبنا الرهبة . وقفنا ونحن لم نر بعد قبراً ولا تمثالا ولا شيئاً يدل عليها . فهى ليست كمقبرة ميلانو يرى الداخل من أبوابها الأولى ما وراء هذه الأبواب ، وإن كانت أكثر من مقبرة ميلانو ظهوراً من الخارج ؛ لأنها تقع على سفوح مرتفعة بعضها فوق بعض درجات ، فأنت ترى أعاليها قبل أن تصل إليها ، كما أنك تراها كلها كلما ارتفعت فوق السفوح الصاعدة أعلى منها ذاهبة إلى قمة « الريجى » المطل على جنوا كلها . وقفنا خشعاً تملأ قلوبنا الرهبة . ثم تخطينا الباب خطوات ، فإذا عن يميننا وعن شمالنا دهاليز تمتد إلى عشرات الأمتار وقد حجبت بين جدارين ، وضع فى كل جدار منهما توابيت الموتى أصبحت كأنها بعض الجدار ، ونقش على كل منها اسم صاحبه وتاريخ مولده ووفاته ، وطلب الغفران والرحمة له ، فلخصت بذلك حياته الإنسانية جميعاً عظيما كان أو حقيراً ، كبيراً كان أو صغيراً . وهذه التوابيت التى يكاد يخطئها العد ، هى توابيت الذاهبين من أهل جنوا ، وتوابيت أغراب اختاروا جنوا واختارتهم جنوا لتكون مثواهم الأخير ومقراً لرفاتهم ؛ فنقش ذووهم على توابيتهم ما يدل على مكان مولدهم . ومن بعد هذه الدهاليز دهاليز أخرى تمتد مثلها عشرات الأمتار وهى أكثر منها عرضاً بعض الشىء ، فعلى جانبيها مكان التوابيت مقابر ، وعلى المقابر تماثيل تحكى فجيعة قوم فى عائلهم ، ومن حول القوم ملائك الرحمة يعزونهم إن كان عن فقد الأعزة عزاء . ومثل هذه الدهاليز دهاليز أخرى فى أماكن كثيرة من المقبرة المتسعة التى تضم بين الجدران والدهاليز ألوفاً وألوفاً من قبور الفقراء لا تماثيل عليها . وترتفع الدهاليز درجات على سفح المقبرة الفسيحة ، فلا تضيق بالعصور المختلفة ممن يغادرون هذه الدنيا ، فيبكيهم أهلهم ويجسدون بكاءهم فى الحجر الصامت المخزون . ياما أخصب خيال الإنسان فى التعبير عن الألم ! فهذه سيدة ترفع الغطاء عن وجه فقيدها وتنظر إليه مرة أخرى لعل دبيب الحياة يدب إليه من جديد ! ! وهى خلال

هذا الوهم من الأمل الكاذب قد رسم الحزن اليائس على ملامحها صورة الألم المجسد ، وهذه أسرة تندب ربها ومنهم الطفل لما يعرف الهم ولا الألم وهو مع ذلك يبكى لبكاء أهله .. ! وهذا ملك يطير بجناحيه نحو تمثال الرجل الذاهب إلى ربه بعد حياة قضاها فى المحاماة ، والملك يمسك بين يديه لوح المحامى وقد خطت عليه كلمتان هما فخر حياة المحامى : الأمانة والحقيقة . وهذا نبيل يأبى أهله بعد موته إلا أن يكون قبره نبيلا ، وإن كانوا لا يذكرون عنه هو شيئاً . وبين الدهاليز تقوم قباب رفيعة ، بعضها كنائس وبعضها قبور ، وكلها تأخذك بعظمة عمارتها وجمال ما يحيط بها من عمد ونقوش ، كما تأخذك قبور الفقراء الذين ذكرت ، وهى ألوف مؤلفة بهيبة بساطتها وقد افترشت كلها ثرى المقبرة العظيمة يذهب النظر لدرك غايتها فإذا النظر يرتد وهو أقصر من أن يدرك لها غاية .

وعدنا أدراجنا إلى باب المقبرة ، فقابلتنا عند مدخلها عربة تحمل ميتاً وأهله يسيرون وراءه حافين من حوله رجالاً ونساء وأطفالاً خشعاً أبصارهم منكسة رءوسهم بطيئة خطاهم إلى المقر الأخير يوارون فيه جثمان عزيزهم ، أو هم يذهبون به إلى الأتون يحرقون فيه هذا الجثمان لتبقى منه حفنة من تراب يودعونها قبراً يزورونه بعد ذلك . أولا يستحيل كل جثمان تراباً فيزوره الناس ؟ وقد تزور هذا التراب أجيال بعد أجيال إذا كان صاحبه عظيماً . والحق أن الناس لا يزورون التراب ، ولكنهم يزورون الذكرى ؛ لأنهم يكونون أشد لها تمثلاً كلما كانوا أكثر من بعض آثارها قرباً . وأى أثر أقدس عندهم من هذا التراب الذى كان يوماً من الأيام إنساناً مثلهم ذا حركة وإرادة وحياة ، والذى لم يروه حين استحالته تراباً ، فهم يتصورونه كما كان إنساناً أيام حياته ، وفى نفوسهم اليوم منه ذكرى أقدس . مما كانت حياته ألف مرة ! .

وأخذنا الطريق إلى مقر الأحياء من جديد ، فعادت بى مقبرة جنوا إلى التفكير فى وحدة الوجود ، وأرتنى صورة أكثر أخذاً للنفس من الصورة التى أحيت هذه الفكرة فى نفسى وأنا على الباخرة . فتلك الألوف المؤلفة من قبور العظماء والبسطاء ، إنما تحوى خلالها فترة من حياة الإنسانية هى التى نسميها الماضى ؛ وهى صاحبة الأثر الأكبر فى الحاضر وفى المستقبل . وهذه المبانى الضخمة مما رأينا ونرى فى جنوا ، وهذه الأشجار المغروسة على سفوح الريجى ، وهذه الصور من آثار الحياة ومما نتمتع نحن ويتمتع غيرنا من الأجانب ويتمتع أهل جنوا به ، هى من عمل هذه الأجيال المتعاقبة الثاوية فى تلك البقعة الضيقة إلى جانب سعة جنوا وفسحتها .

وهذه الأجيال لم تكن تفكر فينا يوم أقامت تلك المبانى ورصفت تلك الطرق وغرست تلك الأشجار ، وإنما كانت تفكر فى حاضرها مأخوذة به عن الماضى وعن المستقبل ، كما أنا لا نفكر فى هذه الأجيال التى سبقتنا حين نرى آثارها ، وإنما نفكر فى متاعنا نحن بهذه الآثار . ومتاعنا بعض حياتنا بل هو قوام حياتنا . وإذن فقوام حياتنا هذا هو فى كل ذرة من ذراته أثر من عمل تلك الأجيال التى سبقتنا ، وأثر من الكائنات المحيطة بنا ، يابسة كانت أم بحراً أم سماء ، مادة كانت أم قوة . وإذن فليس ثمة ماض أو حاضر أو مستقبل ، وليس ثمة زمان ولا مكان إلا بمقدار ما يحتاج إليه عرف حياتنا القصيرة أداة للتفاهم ، كى نزداد بما فى الوجود متاعاً ، لنزداد به اتصالاً وفيه اندماجاً . وإنما الكائن الحقيق هو هذه الوحدة للوجود ، ليس ما فيه من مختلف الصور إلا بعض مظاهره الدائمة التشكل والتلون فى مختلف الأجرام التى نسميها الكواكب ، وفى مختلف الصور الصغرى التى نسميها كائنات كل كوكب . وأقل الكائنات إحساساً بوجوده الخاص أكثرها سلامة اندماج فى وحدة الوجود ، وأكثرها لذلك طمأنينة وسعادة . ألست ترى أنك لا تفكر فى معدتك وفى قلبك وفى أى عضو من أعضائك ما دام هذا العضو سليماً قائماً بأداء وظيفته فى وحدة وجودك الخاص مطمئنا إلى ذلك غير مستشعر له ألماً ؛ فإذا أصاب هذا العضو ما تألم له وأفقده طمأنينته ، بدأت تشعر له بوجود خاص وتفكر فيه تفكيراً خاصاً ، ليس هو الطمأنينة ولا السعادة التى تبتغى والتى لا تعرفها كاملة إلا فى نسيانك نفسك كل النسيان ، وفى أدائك واجبك للوجود أداء تحس أنت أنه طبيعى ، كأداء القلب أو أى عضو من أعضائك ماله من وظيفة فى مجموع وجودك . وهذه الطمأنينة الساجية إلى الاندماج فى الوجود هى أسمى صور حكمة الوجود . لأنها مظهر وحدته ، وهى لذلك قوام السعادة لكل من أسبغها عليه الوجود .

وبلغنا الفندق وقد أجهدنا القيظ ، فأوينا إليه لنستريح زمناً . وأقبل المساء فخرجنا إلى أنحاء المدينة طمعاً فى جو أجمل . لكنا لم نجد من ذلك إلا ما نجده فى ليالى الإسكندرية الساكنة الهواء الرطب المبلل . فلما كان الصباح أخذنا تذاكرنا توًّا إلى « برن » عاصمة سويسرا . وحدثتنا النفس بالسفر لوقتها لولا موعد الشاى الذى دعينا إليه . وتناولناه وخرجنا نبتغى عند قمة الريجى هواء ألطف وأصفى . وصعد بنا الأوتوبيل متعرجاً فى طرق أذكرتنا طرق لبنان ، يحاذى الطريق الجبل عن جانب والهاوية عن الجانب الآخر ، ونطل نحن من ناحية الهاوية على سفوح قليلة الشجر أو قاحلة ، ونطل فى قاع الهاوية على مبانى جنوا

وعلى « الكامبوسانتو » ، ونرتفع والأوتوبيل تجرى مستديرة مع السفح حتى تبلغ بنا فنادق الريجى ، وفى أحدها جلسنا نطل على المدينة كلها ونستمتع فعلا بهواء رقيق ونسيم خفيف تمنينا معه لو أنا نزلنا فى هذا الفندق من ساعة جئنا إلى جنوا . والمساء يقبل فى بطء ، والنسيم يزداد صفواً ، ومبانى جنوا فى قاع الهاوية تتدثر رويداً رويداً بالظلم . فلما انتصفت الساعة التاسعة نزلنا إلى المدينة من جديد لنقيم بها ليلتنا ولنغادرها ظهر اليوم التالى .

* * *

وقام القطار بعد الزوال بخمس دقائق وبلغ بنا ميلانو فى الساعة الثانية والربع ، وفيها انتقلنا إلى قطار آخر قام الساعة الثالثة والثلث . وفى هذه الساعات الثلاث كان الحر أشد ما يلهب الأنفس وتضيق به الأنفاس . ولقد ظل كذلك طيلة مسيرة القطار من ميلانو إلى أن وصل شواطئ « لوجانو » إحدى البحيرات الإيطالية الكبرى . هنالك لَطُف بعض الشىء ، وهنالك بدأت تباشير الألب . هذه الجبال البديعة التى تحيل الصيف شتاء والماء ثلجاً . على أن لطف الجو لم يقترن بجمال المنظر ، حتى تخطينا نفق سمبلون وصرنا فى أرض سويسرا ، فى هذه الفلذة الأخرى من فلذات الجنان هوت إلى أرضنا لتكون للعالم متاعاً وسحراً . ولست أدرى كيف صنع بالجبال فى هذه البقعة من بقاع الأرض لتبلغ من الجمال هذا المبلغ الذى ينسيك كل متاعب جسمك وهموم نفسك ، والذى يقصر معه خيالك عن أن يجد لوصفه ما يضارعه روعة وبهراً ، والذى يشد إليه بصرك وأنفاسك وأعصابك وكل وجودك ؛ فما تكاد تعود إلى نفسك أو إلى رفيقك لتحدثه عن هذا الجمال هنيهة حتى تتجلى صورة أخرى من صوره فتقطع عليك حديثك وتجرك إلى نافذة القطار يجرى فيشق النفق بعد النفق ، ويريك بعد كل نفق جمالا جديداً ، جمالا يجمع إلى العظمة الروعة ، وإلى السحر البهر ، جبال تحجب الشمس ، وقد كست الخضرة كل سفوحها ، وتوَّج الثلج هاماتها ، وجرت المياه فى أخاديدها ، فأسمعك خريرها أنغاماً عذاباً ، ورأيت من اجتماعها نهراً يجرى ماؤه صافياً سلسبيلا . وتنفسح الجبال عن غوطة كست الزرع أرضها من الخضرة ألواناً متفاوتة ، وكست الأزهار خضرتها بالبنفسجى وبالأصفر وبالأحمر ، وكل واحد منها مختلف ألوانه . ويتعاقب ذلك بعضه فى أثر بعض كأنك تشهده فى « السينما » . ولكن أى سينما ؟ ! سينما الخالق العظيم . سينما الوجود الحى بعظمته وجلاله . ويزداد الجلال وتتعاظمك العظمة كلما انحدرت الشمس وراء سلاسل الأجبال ، فلا تكاد أنت تحقق أجيالا ما ترى أم حقيقة ؟ . وفى الغوطات الخضرة تقوم منازل قليلة كما تقوم على

السفوح أكواخ منعزلة ، كأنما قصد بها أربابها أن تكون صوامع للعبادة . فإذا هبطت الظلم رأيت هذه المنازل تضيء بالكهرباء ، حتى لتمسى وقد حجبها الضوء فلم يبق منها إلا ضياؤها ، وكأنما هى ثريات منثورة فى الوادى بين زروعه التى اكتست هى أيضاً ظلمة . ويرتفع القمر وما يزال فى العاشرة من ليالى ميلاده فوق هذه الكائنات جميعاً ، فيغمرها بضياء رقيق رطب ، لا يقطع ظلمة الوادى ولكنه ينير السماء فيحيل سواد الليل فيها زرقة لا تخلو من سواد . ويجرى القمر مع القطار الذاهب بنا إلى برن ، ثم يقف فى إحدى المحطات ليرينا منظراً فريداً من مناظر الطبيعة الساحرة . فقد ارتفع إلى يميننا جبل جلّل الثلج قمته ، ثم ألقى القمر على هذه القمة بشعاعه ، فعكس الثلج ضياءه وتبلج بنوره ، فشف حتى صار بلوراً منيراً . وخيل إلىّ فى بهرى بهذا المنظر أن القمة قمر ندف ثلجاً ، أو أنها قمة نسجت أقماراً ، أو أن الثلج والقمر تضامّا فجعلا من هذا الضياء فجوة من نور الفجر البشير بالحياة والنور تبعث إلى ركن من الخليقة مطمئن إلى الليل الساجى حياة ونوراً . ونسينا القطار ونسينا السفر ونسينا كل ما حولنا ، سوى طاقة القدر ، هذه هى وحدها منية المتمنى ، وجعلنا نلتمس لها صورة فى كل ما يدور بالخاطر من صور الخيال ، فإذا كل خيال دونها جمالا . وإذا كل خيال يستطيع أن يستمد منها له خيالا .

وفيما نحن فى بهرنا مأخوذون ، إذا القطار تحرك ، وإذا هذا المنظر الفريد يتوارى عن أعيننا لتشهده أعين غيرنا ، وإذا الظلمة تحجب عنا ما حولنا إلا أضواء المساكن المنعزلة على السفوح والقرى المبعثرة فى بطون الوادى . وبقينا زمناً نتحدث عن فجوة الفجر وطاقة القدر . ثم أغمضت عينى فذكرت جان جاك روسو . هذا الكاتب الفيلسوف الذى عاد بالناس إلى عبادة جمال الطبيعة ، والذى جعل من وطنه سويسرا معبد هذا الجمال . ذكرته وذكرت كيف اختص بحيرة ليمان بالحظ الأكبر من وصفه ومن عبادة جمال الطبيعة ؛ لأن ليمان بحيرة جنيف ، وجنيف مسقط رأس روسو ؛ فعجبت كيف يكتفى عابد جمال الطبيعة بركن من الأرض ضيق يقصر عليه عبادته كما يكتفى عابد جمال المرأة بإحدى بنات حواء يجعل منها قدس عبادته جميعاً . وإذا كانت واحدة من النساء تمسك رجلا بأسره مستعينة عليه فى ذلك بغريزة بقاء الجنس فى خير ظروف الحياة ، فأية غريزة تمسك رجلا كذلك بأسره فى حدود بقعة من الأرض ؟ أليس ذلك لأن الوطنية غريزة أيضاً ، وأنت ترى فى بقعة الأرض المحبوبة كما ترى فى المرأة المحبوبة صورة الوجود كاملة فى ظنك ، فأنت لذلك ترى فيهما كل وحدة الوجود ! .

ثم أحسب لو أن روسو حاول أن يصف جمال الطبيعة فى سويسرا كلها بدل أن يقتصر على ليمان ، لضاق بذلك ذرعاً ، ثم لوقف من وصفه عند هذه الصور التى نراها ، جماعةَ المسافرين ، فلا نستطيع أكثر من تسجيل أثرها فى أنفسنا . وليست هذه عبادة الجمال عبادة حقيقية . فالعبادة استغراق العابد فى المعبود . هى نوع من الفناء يرضاه الإنسان طائعاً مختاراً ؛ لأنه يشعر فيه بلذة عظيمة هى لذة انضمام الجزء لصورة من الكل الأعظم الذى يصوره من الوجود لنفسه . وهؤلاء الذين يعبدون ويفنون فى عبادتهم هم الشعراء حقاً ، وهم الذين يتركون على الحياة أثراً باقياً ما دام لمعبودهم على القلوب سلطان يبهر القلوب .

وفيما كنت أفكر مأخوذاً بما رأيت . مرت بخاطرى صورة ماضى الشرق وعظمته يومئذ كانت سويسرا وكانت جبال الألب وكان القمر يلمع على الثلج ويخلف منه ليلة القدر . فما لهذا الجمال لم يخلق فى نفوس أهله من العظمة مثلما كان لأهل الشرق ؟ ! وهل كانت هذه الصحارى الفسيحة الممتدة على جانبى النيل أيام الفراعنة امتدادها اليوم . والصحراء الممتدة حول بيت المقدس مبعث الديانتين الموسوية والمسيحية ، وصحراء العرب المحيطة بمهبط الرسالة على محمد عليه السلام – هل كانت هذه الصحارى يومئذ أفعل أثراً من تلك الجبال البديعة ؟ ثم مالها اليوم تبعث إلى من تحيط بهم خمولا واستسلاماً بعد أن كانت تبعث إليهم بالنشاط والقوة ؟ أم لعلها كانت فى الماضى مبعث القوة الروحية صاحبة الأثر الأكبر فى الجماهير ، على حين كانت القوة المادية الكمينة فى جبال الألب ما تزال لم تفترع ولم تلد للناس هذه الكهرباء وما قلبت الكهرباء والقوى المحركة الأخرى من نظام العالم ؛ فلما بدت هذه القوى الكمينة فى المادة أشعلت أرواح المحيطين بها من الناس بأقوى مما كانت الصحارى تشعل أرواح من تحيط بهم فتمدهم بالخيال والشعر ؟ وهل لنا ، إن صح هذا ، أن نيأس وأن نستسلم لليأس ؟ أم لعل فى خيال الصحارى وفى سرابها قوى كمينة لما تفترع ، فإذا آن لها أن تفيض على الناس ما عندها غاضت الألب وقواها ، وتجلت روح الشرق بازغة من جديد ؟ أم الحق أن لا شرق ولا غرب ولكنها وحدة لا تعرف زماناً ولا مكاناً ، تنتقل مظاهر القوة فيها لأعيننا نحن الذين نرى من كل ما فى الحياة فترات قصيرة فنحسبها فى ناحية تارة وفى أخرى تارة أخرى ، فى حين هى قوة الكل حيثما بدت مظاهرها . فهى ملك الكل ، بل هى من هذا الكل جزء لا يتجزأ ؟ . . .

وفيما أنا فى تفكيرى فى روسو ، وفى وحدة الوجود ، وفى جمال الطبيعة ، وفى الشرق

والغرب ، إذا أنوار تبدو ، هى أنوار العاصمة السويسرية ، وإذا نحن يجب أن نُعْنَى بمتاعنا عند وقوف القطار . ووقف القطار ونزلنا ، وأوينا إلى فندقنا بعد يوم قائظ قضيناه نقطع أراضى إيطاليا ، وبعد مساء استقبلتنا به سويسرا ، فأنسانا القيظ وإجهاده ، وأنسانا بجماله الفتان كل ما سوى سويسرا وطبيعتها البارعة الفتنة .

obeikandl.com

أعياد سويسرا

ليست طبيعة البلاد المحيطة بالعاصمة السويسرية (برن) من الجمال بمثل ما ترى محيطاً ببحيرة ليمان ولا عند أنترلاكن أو لوسرن ، فأنت تقطع الطريق بينها وبين بازل وبينها وبين زوريخ وشافوزن . فلا ترى من شاهقات الجبال المغطاة بالثلج ومن الأودية المنخفضة تجرى خلالها المياه ، مثلما ترى حول ليمان وحول البحيرات السويسرية الأخرى . لكنك مع ذلك واجد حول برن من صور الجمال ما امتازت به سويسرا جميعاً . يجرى خلال المدينة نهر « الآر » متعرجاً ملتوياً ، وترتفع على جانبيه منازل ومروج محيطة بتلك المنازل ، وسفوح ترتفع وترتفع لتكون طرق المدينة ومبانيها الكبرى . وفى برن من المبانى الكبرى عدد غير قليل يبهر النظر لعظمته وجماله . فمقر حكومة الولايات السويسرية والبنك السويسرى وبنك المقاطعة تقع كلها فى ميدان واحد وتقع معها أفخم فنادق المدينة ، وتطل كلها من ظاهرها على الآر وجبال الجورتون ، فتستهوى إليها أهل برن والسائحين يجلسون فيها على مقاعد كثيرة مدت خلال الحدائق الخضراء زانتها أزهار ألوانها ذات بهجة تتوسط خضرة الحدائق وتروق العين بروائها وجمال منظرها الضاحك العذب الابتسام . وإلى الجانب الثانى من المدينة تقوم جبال متصلة بجبال الجورتون ، وهى مثلها ليست شاهقة ولا مهوبة . وفى هذا الجانب الثانى مستشفيات بديعة الموقع فخيمة العمارة . لكن « برن » مع هذا كله مدينة وليس فيها ما فى البلاد الصغرى من بهجة الجبل والبحيرات . ثم إن الجو كان فيها أول يوم نزولنا إياها حارًّا يذكر أهلها أنهم لم يروا مثله منذ سنة ١٩١١ مضرب المثل فى حرارة الجو بسويسرا . لذلك آثرنا بعد يومين أن نقيم بأعلى قمة الجورتون ، فنكون على ربع ساعة من وسط برن ، ونتمتع فى الوقت نفسه بجمال الجبل وغاباته ، وبمناظر الجبال الشاهقة الأخرى المنثورة فى أنحاء سويسرا المختلفة .

يصل بين برن والجورتون ترام صاعد (فنكلير) . وعلى دقيقة أو دقيقتين من أعلى الفنكلير فندق الجورتون . نزلناه وأقمنا به أربعة أيام ، وأكبر غايتنا أن نشهد من فوق ثلوج اليونج فراو والبيلات وغيرهما من شاهقات سويسرا منظر الشمس الغاربة والقمر الطالع متورداً ثم فضيًّا ناصعاً . ولقد شهدنا هذا المنظر فى آخر أيام مقامنا بالجورتون ونحن خشية

ألا نشهده فى وجل أى وجل . فى اللحظة التى بلغنا فيها الجورتون تلبد الجو بالسحاب ، ثم بدأ المطر يهتن تتبعه بروق ورعود ، ذكر لنا صاحب الفندق أنه كان فى انتظارها بعد أربعة أسابيع جافة من كل مطر ، صافية السماء لضوء الشمس ولشعاع القمر . وانتظرنا أن تقلع السماء ، وأن يغيض الماء ، وأن يطلع القمر ، وأن تتبدى القمم وثلوجها ساعة طلوعه ومغيب الشمس بما يشفى ظمأ نفوسنا المشوقة لهذا المنظر الساحر . لكن المطر ظل يهتن طول الليل إلا قليلا . على أنا استعضنا يومئذ بمنظر قلَّ من مثله نظيره ؛ ذلك منظر قوس قزح فى ساعة المغيب . فقد وجدت الشمس الغاربة خلال الركام فرجة نفذ منها شعاعها متخللا بلورات الماء المتساقط مطراً ، فإذا قوس قزح بألوانه السبعة ينتشر فى السماء ويشطرها شطرين : مظلم ومضىء . مظلم ناحية الغرب القريبة من الشمس ، ومضىء ناحية الشرق البعيدة عنها وما أكثر ما رأيت قوس قزح فى أرياف مصر وفى غابات أوربا ! لكن أقواس قزح تتفاوت على ما يظهر فى جمالها كما يتفاوت جمال منظر عن منظر ، وصورة عن صورة ، وامرأة عن امرأة . ولعلى لا أذكر أنى شهدت قوس السماء فى مثل بهر قوسها . إذ شهدته من الجورتون فى صفاء ألوانه أو فى جمال المنظر الذى كشف عنه . فلقد كان هذا القوس كأنما نظمت وراءه الأجبال والغابات والثلوج بيد ماهرة ، أو كأنما رفع الستار عن مسرح ينظمه الإنسان بما لا يدع لصورة من الجمال فى الخلق أن تبذه . وكلما ازدادت الشمس نحو المغيب انحداراً ازدادت ألوان القوس سطوعا وازداد ما وراءها ضياء . ولم يستطع أحد ممن كانوا معنا فى صالة الطعام ساعتئذ ألا يترك طعامه وألا يذهب إلى جانب النافذة يقدس من خلالها هذا السحر الذى اندمج فى نفوسنا واندمجت فيه نفوسنا فما نطيق له تركاً أو إلى الطعام عودة . وبين المأخوذين ببهر هذه الساعة التى تجلى فيها جمال الخلق فى أبهى صوره شيخ جاوز السبعين طويل اللحية أبيضها ، ومن حوله ابنته وحفيدته ، وهم جميعاً معجبون بالمنظر وهو من بينهم أشدهم إعجابا ، وكأنه وهو فى سنه المتقدمة أقربهم إلى سمو الفناء فى وحدة الوجود ، وأدناهم إلى هذه الوحدة وأكثرهم كلفاً . وبقى هذا القوس الساحر يأخذ القلوب إليه حتى آن لمبعثه ذات البهاء أن يتوارى ، وأن يترك عالمنا لليل يبتلعه فى جوفه الأسود الداكن . على أن قوس قزح جدد فى أنفسنا الأمل أن تنقشع السحب وأن يطلع القمر ، وأن نخف إلى المنظر الذى شدّ ما شاقنا مرآه : منظر القمر يتوج هام الجبال وثلوجها . فلما تناولنا طعامنا خففنا إلى ناحية باب الفندق لنأخذ طريقنا إلى أعلى مكان من قمة الجورتون ة على سائر قمم الألب الرفيعة . لكنا ما كدنا نبلغه حتى ألفينا السماء قد عادت تهمى

فيذهب تهنانها بأملنا الذى كان قد تجدد . وفيما نحن واقفون أقبل صاحب الفندق يجرى وقد بلله المطر ، فرأى ما تنم عنه وجوهنا من شكاية . إذ ذاك هز كتفيه وضحك وقال : « وماذا تريدون ؟ إن لنا لأربعة أسابيع جافة من كل مطر ، حتى يبس الزرع وجف الضرع ، وصرنا ننتظر مثل هذا اليوم بصبر ذاهب . ألستم ترون إلى الأرض كيف اقشعرّت وإلى المرعى كيف جفّ ، وإلى الشجر كيف عراه الذبول ؟ ! فإذا جاءت السماء يومين أو ثلاثة أيام بمطرها المحسن عادت إلى الأرض بهجتها وأخذت من جديد زخرفها ، ولم يكن لإنسان إلا أن يزداد لذلك بهجة ، ثم عادت المواشى ترعى ويدرّ ضرعها وتعطى من خيراتها ، وعادت الخضر إلينا بعد أن كدنا نكون منها فى يأس مقيم . وإنكم لواجدون فى بهاء الصباح غداً ما يعوضكم من هذه الليلة المطيرة . . » .

وصدق الرجل ؛ فكان الصباح صفو السماء ، جميل الشمس ، رفيق الجو ، مما سمح لنا بالتجول فى الغابات ما شئنا ، حتى إذا أحسسنا الجهد جلسنا إلى مقعد بين الأشجار الرفيعة تحجب شعاع الشمس ، وإن عنى أهل المنطقة بأن يقصوا أمام النظر أغصان الأشجار ليستطيع الاستمتاع بالسفوح الهابطة إلى برن ، وبنهر الآر وبعاصمة سويسرا ومبانيها المختلفة . لكن النهار ما كادت تجىء مولياته والشمس ما كادت تنحدر إلى ناحية الغرب لترسل حولها من لهبها المطمئن ما يصبغ السماء ورداً ودماً ، حتى كانت السحب قد تراكمت من جديد ، وحتى نزل المطر فأذهب أملنا فى رؤية القمم الشماء المجللة بالثلوج تحت أشعة مغيب الغزالة ومطلع البدر . وظللنا كذلك ثلاثة أيام تباعاً نستمتع طوال النهار بصحو ، حتى إذا جاءت الساعة المرجوة ، ساعة المغيب ، التهمتها منا السحب والتهمها المطر التهاماً . وكاد اليأس يتولانا من الاستمتاع بهذا المنظر ، حتى إذا كانت آخر ليالى مقامنا بالجورتون — وكانت ليلة تمام القمر بدراً — إذا كل أملنا يتحقق ، وإذا نحن نشهد من أعلى قمة الجورتون عيداً من أبهى أعياد الطبيعة ، كان مقدمة لنشهد بعد يومين فى زوريخ عيد استقلال سويسرا ، ولنشهد بعد يوم ثالث عيداً محلياً ظريفاً فى شافوزن .

كانت الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم الأخير من مقامنا بالجورتون حين عدنا من وسط الغابات قاصدين أعلى قمة الجبل . لكن الشمس كانت ما تزال عالية فى السماء فآثرنا البقاء على مقعد نطل منه على برن حتى تقرب ساعة المغيب . وقبيل الساعة الثامنة حانت منا التفاتة نبهتنا إلى أن الشمس بدأت تنحدر ، فيجب أن نذهب إلى أعلى القمة . وذهبنا فألفينا عندها جمعاً عظيماً جاءوا كلهم لمثل ما جئنا له من استمتاع بعيد الطبيعة . واتجهت

الأنظار إلى ناحية الألب الشماء وحدقت العيون إلى الثلوج الناصعة تحت ضياء الشمس لما يلهبه المغيب ، وكنت لا تسمع إلا همساً يتخلل الوقت بعد الوقت صمتاً مطلقاً . ومن بين هذا الجمع عجائز يمتعن أنظارهن وأفئدتهن ونفوسهن بمتاع طالما شهدنه عهد الصبا وهن اليوم له أشد شوقاً . ومن بين أولئك العجائز واحدة ما تكاد تمسك نفسها جالسة ، فهى تعتمد إلى كتف ممرضة تلزمها جلست إلى جانبها . وإلى جانب العجائز صبية وأطفال غير السيدات والرجال ، جاءوا جميعاً يحققون بمجيئهم وحدة الحياة الإنسانية ، ويحققون بفنائهم فى المنظر الذى ينتظرونه وحدة الوجود .

وانحدرت الشمس نحو الغرب واحمر نورها . . . انظر الآن إلى قمم الثلج . يالبهاء الجمال الباهر ! ما أشد هذا العيد سحراً ! لقد استحال الثلج ورداً ، فالورد عسجداً ، فالعسجد دماً ، فدكن الدم حتى أظلم . ويستحيل الثلج فى هذه الألوان مبطئاً متمهلاً والأنظار إليه مشدودة حتى لا يفوتها منه منظر . والقمر يحبو من وراء الثلوج متورداً ليستحيل هو أيضاً رويداً رويداً إلى لون الذهب . والسماء من وراء ذلك تضرب فيها أشعة الشمس وتطوق ما بها من سحب بمثل ما تصبغ به الثلج من ألوان . وأنت بين هذه المناظر كلها تائه اللب مشرد النفس مسحور ، يتجاذبك الخوف أن ينتهى العيد والرجاء أن ترى استحالات أخرى فى لون الثلج وفى ضياء القمر . وتضىء أنوار الكهرباء فى برن فلا تلتفت إليها عين ، وكانت ترى لها فى الليالى السابقة ، وهى سترى لها بعد سويعات ، روعة وجمالاً . ثم أظلم الثلج كله ، وبدأ بعض الحاضرين يقومون ، وقامت هذه العجوز المتهدمة تتداعى أوصالها ، فما تكاد الممرضة الشابة تقيم أعضاءها المحطمة . لكن هذا القتام فى الثلج لم تمض عليه فترة حتى عكس لون السماء الذى استحال كله لهباً ودماً . انظر الآن من جديد واستمع إلى آهات الإعجاب تنفثها الصدور وتصدرها القلوب . لكن واأسفا ! لقد كانت هذه الفتنة فى السماء صحو الاحتضار . . فما هى إلا دقائق حتى اختفى كل شىء . فلم يبق لشعاع الشمس أثر ، وإن أضاءت السماء جميعاً بنور القمر . ولم يكن شعاعه لينعكس على الثلوج وراءه ، فلم نكن لنرى منها فجوة الفجر أو ليلة القدر . فحمدنا الطبيعة على أن لم تضاعف عيدها بسحر جديد ، حتى لا تمسكنا طيلة الليل إلى جانب منظر ما أشك فى أنه كان ينسينا طعام العشاء ونوم الليل . وعدنا أدراجنا إلى الفندق يملأ أفئدتنا البهر وقلوبنا السحر ، وتلهج ألسنتنا بالحديث عن متاع بالجمال قلَّ أن يكون مثله متاع .

وغادرنا الجورتون ضحى اليوم التالى إلى برن ، وغادرناها بعد الظهر إلى زوريخ فأمضينا

بها ليلتنا . ثم قمنا أول يوم من أغسطس نبتغى أن نطوف أرجاءها لنرى ما فيها . فلم نلبث أن غادرنا الفندق ، فسارت أقدامنا إلى البحيرة ، وسألنا عن موعد قيام الباخرة التى تطوف أنحاءها . وعلمنا أن الباخرة التى تقوم صباحا قد أقلعت من ربع ساعة ، وأن الأخرى تقوم فى الساعة الثانية بعد الظهر . فاتجهنا مع شاطئ البحيرة لحظة ، وركبنا الترام نبتغى ظاهر المدينة . ودلتنا أعلام الطريق على أن صاعد الجبل على مقربة منا ، وأنه يرتفع بنا إلى غابات « ولدر » . وفيما نحن فى طريقنا إلى محطة الصاعد قابلتنا فتيات يبعن شارات لم نعرف ماهى ، ولذلك لم نشترها . وصعدنا إلى « ولدر » ، وقضينا بين الغابات البديعة إلى الظهيرة ، ثم عدنا فتناولنا طعام الغداء فى الفندق . ماذا عسى أن تكون هذه الشارات التى أرادت الفتيات بيعها لنا ؟ إن كثيرين من النازلين فى الفندق وكذلك رجاله جميعاً ليحملونها . لعلها شارة جمعية من الجمعيات الخيرية ، ولعل لها أمراً لابد أن سنقف عليه . لكن الوقت الباقى على موعد قيام الباخرة قليل . لذلك أسرعنا فى تناول الطعام ، وقمنا إلى الباخرة التى طافت بنا فى أنحاء البحيرة جميعاً . ولبحيرة زوريخ ما لسائر بحيرات سويسرا من روعة وسحر . ولتشكل مياهها مع ألوان السماء تارة وخضرة الشجر أخرى ما يأخذ النظر ويسحر اللب . وكنا بهذا الجمال فى سحر أى سحر . لكن الناس على ظهور الباخرة كثيرون جداً ، حتى لتستوقف كثرتهم النظر ، ومنهم كثيرون يحملون هذه الشارة التى أرادت الفتيات بيعها لنا . فماذا عسى أن تكون ؟ وأى شىء دعا هؤلاء الكثيرين ، رجالا ونساء ، إلى ترك أعمالهم ؟ وكنا على وشك السؤال عن هذا وعن غيره من مثله لولا أن عاد فأنسانا إياه جمال البحيرة وجمال شواطئها ، فلم يبق فى أذهاننا موضع للالتفات إلى غير هذا الجمال وتلك الفتنة صورت خضرة ، وماء ، وسماء . فلما أتمت الباخرة سياحتها وعادت فى الساعة السابعة مساء إلى زوريخ وعدنا إلى الفندق ، رأينا عدداً من هذه الشارات عند بواب الفندق ، فسارعت إليه وسألته عنها ، فإذا بهذا اليوم عيد حرية سويسرا ، وإذا هذه الشارات شارات عيد الحرية ، طبعت لذكراه فى يوم أول أغسطس سنة ١٩٢٨ .

عيد الحرية فى سويسرا ! بلاد الحرية والمثل الأعلى فيها ! أليس هذا جميلا ؟ أليس جميلا أن يذكر الغنىُّ المفرط الغنى يوم غناه ، والرجل العظيم أول أيام عظمته ؟ أو ليس أجمل من هذا أن تذكر الأجيال التى تستمتع بالحرية فى يوم مولد الحرية تضحيات الأسلاف الذين أراقوا دماءهم وأهدروا منافعهم فى سبيل حرية غيرهم من غير أن تكون لهم هم مطامع خاصة وغايات عاجلة ؟ وإذ يذكر الناس ما فعل أسلافهم

لهم يشعرون بهذا الدين الكبير عليهم الذى يجب أن يؤدوا مثله لأخلافهم ، كما يطالب الإنسان بأداء دين حياته لابنه لا لأبيه .

وشاركنا السويسريين فى عيدهم ، فحملت على صدرى شارة من شارات عيدهم . ونزلنا نطوف فى المدينة علنا أن نجد فيها ما يدلنا على ميول أهلها . لكن الحوانيت مقفلة جميعاً ، والطرقات خالية أو تكاد ، والناس فى مرحهم بعيدهم قد خرجوا إلى ظاهر المدينة نهارهم كما خرجنا نحن أيضاً . ومنهم من آب ومنهم من لا يزال فى مرحه . والذين آبوا ينتظرون فى منازلهم الساعة العاشرة من المساء – ساعة العيد الكبرى .

وعدنا إلى الفندق ، ولبسنا كما لبس القوم ملابس العيد ، وشاركناهم فى الاحتفال به . وكيف لا نشاركهم فيه والفندق الذى نقيم به يكاد يكون مستقر العيد ! فلقد ازدانت حدائقه بالكهرباء تخللت أشجارها جميعاً ، وازدانت حشائش الحدائق بالشموع صفت على حافاتها بعد أن وضعت فى أكواب ملونة تتى ضوءها عبث النسيم . وازدانت البحيرة أمامه بأبدع الزينة ؛ إذ اتشحت بواخرها جميعاً بالأنوار المختلفة الألوان ، ورسم فى مقدماتها بالأنوار كذلك علم سويسرا يتوسط فيه الصليب الأبيض رمز السلام رقعة حمراء هى الدماء التى ما تفتأ الأمم تريقها آناً بعد آن باسم حرية الشعوب تارة ، وباسم سلامها أخرى .

وكانت الساعة العاشرة حين بدأت الألعاب النارية تقذفها مياه البحيرة ، فتعلو وتعلو ، ثم تنفجر فى جوف السماء وفى لجة ضوء القمر ، وتهبط بعد ذلك شهباً ساطعة إلى الماء من جديد . وما كاد الناس يسمعون فرقعة الألعاب حتى خفوا إلى ناحيتها . ما أعظم عيد الحرية وما أروعه ! انظر إلى هذا الشعب السويسرى من أهل زوريخ اجتمع كله فى بقعة ضيقة فوق جسر البحيرة حتى ليشفق الإنسان على الجسر أن يميد به ! اجتمع فى هذه البقعة ليحيى الحرية فى يوم عيدها ، وليشهد كل واحد صاحبه على أنه وصحته وماله وحياته فداء هذه الحرية ؛ ثم ليبتهج حتى يبلغ ابتهاجه حد اللهو أن بقيت هذه الحرية مصونة لا يفكر أحد فى الاعتداء عليها ، وأن بقى الشعب السويسرى اليوم كما كان من قبل مضرب المثل فى الحرية الكاملة والديمقراطية الصحيحة .

وكانت الألعاب النارية مدى الساعة التى استمر إطلاقها فيها من أماكن مختلفة فى البحيرة جميلة حقاً . فلما أطلق آخر سهم من سهامها فارتسم العلم السويسرى خلاله ، بدأ القوم ينصرفون عائدين لاستكمال لهوهم بعيدهم ، أو للاستجمام فى منازلهم استعداداً

لعمل الصباح ، وأقلعت باخرة بأنوارها ذاهبة من زوريخ إلى البلاد الواقعة على جوانب البحيرة ، والتى جاء أهلها يشاركون أهل عاصمة المديرية فى العيد الأكبر ، وبدأت الأنوار كلها تخبو رويداً رويداً ، والليل يستعيد حكمه . ثم كانت الهجعة انتظاراً ليوم جديد .

* * *

وأصبحنا نطوف فى شوارع زوريخ ، وترى فيها النظام الجذاب الذى برع أهالى سويسرا فيه تجميلا لبلادهم ليجذبوا السائحين إليها ، فهى جميلة فى طبيعتها ، جميلة فى مدنها ، جميلة فى حوانيتها ، جميلة فى طريقة عرض بضائعها ، جميلة فى كل ما يلتفت إليه النظر من صور الجمال مما يستطيع الإنسان توفيره للإنسان . وغادرنا المدينة بعد الظهر قاصدين شافوزن لنرى مساقط الرين ، ثم لنتخطى الغابة السوداء ، ولنصل إلى ما ينس فنركب الرين منها إلى كولونيا ، كى نرى معرض الصحافة فيها ونحضر مؤتمرها .

ولست أتحدث الآن عن مساقط الرين وروعة جمالها ؛ فلهذا الحديث موضع من بعد . ولست أتحدث عن شافوزن فهى قرية أو تكاد . وإنما أتحدث عن عيد محلى ظريف فى شافوزن ساقته المصادفة لنشهده فى الليلة الوحيدة التى أقمناها بها ، كما ساقت لنا المصادفة عيد الجمهورية فى زوريخ وعيد الطبيعة فى الجورتون ، وكما ساقت لنا قبل ذلك عيد الليلة الأخيرة من ليالى سفرنا على البحر قبل إرساء الباخرة بنا فى جنوا .

فلشافوزن ، كما لكل كورة سويسرية ، موسيقاها . وقد طلبت الجالية السويسرية فى باريس إلى بلدية شافوزن أن ترسل لها بموسيقاها كى تحيى بها عيد الحرية السويسرية فى قلب العاصمة الفرنسية . وأجابت بلدية شافوزن الطلب مغتبطة مبتهجة . وأحيت الموسيقى العيد ، فدعاها عمدة باريس ودعتها بلدية العاصمة الكبرى . ثم آن لها أن تعود إلى شافوزن ، وكان ذلك حين وجودنا بها ووقوفنا على مقربة من محطة السكة الحديدية فيها . وكما اجتمع أهل زوريخ فى الليلة السابقة على جسر البحيرة يحيون عيدهم اجتمع أهل شافوزن حول المحطة يستقبلون موسيقاهم ويحيونها بالأعلام والأزاهير . فلما أقبل القطار اهتزت الأعلام فى المحطة ، فقابلتها أعلام الموسيقى تهتز فى وسط القطار ، ثم صدحت الموسيقى بنشيد اهتزت له الأفئدة والقلوب . ما أجمل الشعور القومى العام صادراً من أعماق النفوس وتحركه عاطفة بريئة من كل غاية ، منزهة إلا من حب الوطن ! واصطف الناس فى الطريق وفسحوا لرجال موسيقى بلدتهم ممراً يسيرون فيه . ونزل هؤلاء الموسيقيون إلى الطريق ،

ثم صدحوا فحركوا القلوب والأشجان من جديد . وانفرط عقد القوم حين توارت الموسيقى عن أنظارهم فى ظلمة الليل وذهب كل إلى ناحية .

ولم ندر نحن كيف نقضى برهة من الزمن ، حتى دلنا رب الفندق على « الكونسرت » تصدح فيه الموسيقى . فلما استقر بنا المقام فيه وطابت لسماع موسيقاه نفوسنا ، إذا ضجة كبيرة تعلو خلاله ، وإذا رجال موسيقى البلدية يتخللونه وعلى وجوههم البشر بعد أوبتهم من أم العواصم ، وإذا الناس من أهل شافوزن يصافحون أولئك القادمين ويقبلونهم ، وإذا أحدهم يقبل على مائدة اصطف إلى جانبها بعض الفتيات فيقبِّل إحداهن ويجلس إلى جانبها ، وإذا مرح عام يسود المكان ويغطى على صوت موسيقاه وعلى أحاديث المتحدثين على مسرحه ، وإذا هذه الضجة تستمر حتى قيامنا إلى فندقنا نأوى إليه .

وفى الصباح الباكر أخذنا القطار الذاهب إلى كولونيا بعد أن يقطع الغابة السوداء ويحاذى الرين . لكنا آثرنا أن نغادره عند ما ينس لنقيم بها يومين ، ثم لنذهب منها إلى كولونيا على الرين لنرى بدائع ضفافه . ولشدَّ ما سعدنا لهذا التدبير ، وابتهجنا بما أتاح لنا أثناء مقامنا بما ينس أن نذهب إلى فرنكفورت ، وأن نرى بيت الشاعر الفيلسوف الألمانى العظيم جيتى .

بيت جيتى

الرين والغابة السوداء

قضينا فى شافوزن ليلة واحدة ، بلغناها عصر اليوم الثانى من أغسطس وغادرناها بكرة الصباح من اليوم الثالث منه . ولم نكن نتوقع أن نرى عيدها المحلى الذى أشرت فى الفصل السابق إليه ، فلم يكن هذا العيد داعية سفرنا إليها . إنما دعا إلى هذا السفر أن بها مساقط الرين ، وأنها على أبواب الغابة السوداء . وفرض على عشاق الرين أن يروا مساقطه ، وعلى الذين يقصدون الرين أن يمروا بالغابة السوداء .

ومساقط الرين تقع عند بلدة نوهاوزن المتصلة بالترام مع شافوزن . ولا يستغرق الترام فى مسيرته بين البلدين أكثر من عشر دقائق . ولقد ركبناه بعد وصولنا شافوزن ، وتركنا متاعنا فى أحد فنادقها القروية البحتة . فلما نزلنا منه دلتنا أعلام الطريق على اتجاه المساقط ، فتبعناها حتى كنا عند الجسر الذى يتخطى الناس ويتخطى القطار الرين من فوقه ، ونحن نحسب أنا سنرى عنده كل مناظر المساقط التى أسمعتنا طول طريقنا إليها دوىّ انحدارها ، وأطمعتنا بذلك فى جمال لم تكذبنا إياه . لكنا لم نر من فوق الجسر إلا جمالا عادياً : مياه تنحدر هابطة نحو صخور تتلقاها فترغى وتثير حولها زبداً ، له كما للانحدار جماله . لكنه ليس الجمال الذى وصف لنا الواصفون ، والذى تتحدث عنه الكتب كأنه من عمل الجن أو كأنه بعض مناظر السحر .

هذا جمال كم رأينا من مثله فى مختلف المنحدرات فى سويسرا وفى فرنسا ، بل فى لبنان نفسها . وإن فى منحدر مساقط ديوزا على مقربة من سان جرفيه وفى دوىّ مياهها المهوب وفى تجهم قطع الجبل التى تنحدر المياه عنها ، لما يلفت النظر أكثر من هذا المنظر . كذلك قلنا ونحن نتخطى الجسر إلى الناحية الثانية من النهر . فلما كنا فى الناحية الثانية قابلنا لوح مكتوب عليه : « إن شئت أن ترى المساقط فى كل روعتها فسر ثلاث دقائق أخرى » .

وكان لزاماً أن نسير . إنا لم نجئ إلى هنا إلا لرؤيتها . فلنسر ، ثم لنصعد ، ثم لنأخذ تذكر دخول ، ثم لنصعد من جديد لنرى من المساقط منظراً جديداً . منظراً غير ما شهدنا من قبل فى سويسرا وفى لبنان وفى فرنسا . ثم لنهبط من جديد لنكون أقرب من المساقط ولنراها

أشد روعة . ثم لنهبط ثالثة ولنهبط رابعة . لننسى فى كل مرة ما شهدنا من صور الجمال غير هذا الجمال . ولنستغفر الرين ما كفرنا بجماله قبل أن نقف على حقيقة جماله . ولنعترف أمامه أن الكفر بالشيء أثر من آثار الجهل به .

سرنا إذن بعد ما تخطينا الجسر ، وصعدنا فى طريق كثير الالتواء غير معبد . ثم قابلنا مدخل بناء قديم كتب عليه أنه قصر لاوفن ، وطلب منا أن ندفع فرنكاً مقابل دخول عن كل شخص . ودفعنا مترددين ، وتقدمتنا سيدة تهدينا السبيل ، وتخطت بنا وسط غرف فيها أشغال من الخشب معروضة للبيع ، وجعلت تحدثنا كى نشترى منها تذكاراً لزيارتنا . فازداد أسفنا لما أضعنا من جهد ، وخيل إلينا أن هذا المكان ليس إلا شباكاً نصبت لبيع ما به باسم الفرجة على مساقط الرين . فلما بلغنا الشرفتين المطلتين على المساقط من أعلى القصر القديم تركتنا السيدة وقالت : أمامكم أربعة مناظر متعاقبة للمساقط ، فاهبطوا إليها بسلام .

وكان لهذا المنظر الأول جمال وكانت له روعة : تبدت الصخور الثلاث الجاثمة خلال مجرى النهر ، ولكل واحدة منها صورة غير صورة الصخرة الأخرى ، وتبدى التواء النهر عند هذه الصخور التواء يزيد فى انحدار مياهه قوة وفى مضارب زبدها بشاطئه الأيسر روعة وحشية تأخذ الفؤاد كما تأخذه كل مناظر القوة والوحشية . وبدا الجسر بعيداً وراء الصخور ، فلم نلتفت إليه إلا ريثما نعرف منها موقعه . ثم ثبت نظرنا على الصخور قامت إحداها ضخمة مرتفعة فوق الماء يضربها فيرتد عنها هائجاً طائراً رشاشه حولها سخطاً واستسلاماً . أما الثانية فخالية من وسطها لا يدرى أحد كيف نقرت ، والماء يدور من حولها مرغياً مزبداً ، ثم ينحدر بينها وبين الصخرة الأولى إلى هاوية لم نقدر مدى عمقها من مكاننا العالى الرفيع . أما الثالثة فصغرى الصخرات الثلاث وهى أشبه ما تكون فى تواضعها بصخور شلال حلفا ، وهى مثلها جاثمة مجثم الفيل الضخم العظيم . والماء يرطم الصخرات والصخرات ترطمه ، فيستحيل زبداً ينحدر إلى القاع العميق تحته . وسحب الماء فوق ذلك تحول دون شعاع الشمس أن يصل إلى الماء وإلى الصخور .

وانحدرنا إلى غرفة فيها زجاج ملون يحيل لون الزبد إلى مختلف ألوانه الحمراء والصفراء والزرقاء ، لترى فيه العين أمثال مناظره ساعة الغروب وساعة مطلع الفجر وفى ضحوة النهار ، حتى لا يأسف زائر على أن لم يزره فى الساعات جميعاً . ثم انحدرنا بعد ذلك إلى مكان صفت حوله مناضد هو أقرب إلى المساقط وأشد تجلية لروعة جمالها . وعلى هذه

المقاعد يجلس الناس يمتعون أنظارهم بفتنة هذا العمل الجميل من أعمال الطبيعة الذى لا قبل للإنسان بمثله . فجلسنا مع الجالسين ، وأخذنا الإعجاب فأنسانا الجسر وما رأينا عنده ، وأنسانا الصعود إلى هذا القصر ، بل أنسانا ما حولنا من أمثالنا المعجبين . وطال بنا المجلس أن حسبنا أن ليس بعده مزيد من جمال . وأصرت زوجى على أن تظل فى مكان الإعجاب هذا لا تبرحه . وانحدرت أنا نحو المنظر الثالث الذى يلى هذا الموقع ، فهبطت طريقاً ضيقاً استدار فى طريق آخر ، ثم إذا بى أمام صخرة لا يرى الإنسان معها من مساقط الرين شيئاً . ولكنى ما لبثت أن رأيت رجلاً خارجاً من جوف الصخرة ، خلال نقر فيها ، فدخلت من حيث خرج ، واستدرت مع الصخرة ، فإذا بالمنظرين السابقين من مناظر المساقط دون هذا المنظر الثالث روعة بمراحل ، وإذا بى أعود أدراجى صائحاً بزوجى أن تنزل لترى . ويضيع صوتى فى خوار الهدير فلا تسمعه ، فأصعد وأصعد حتى صرت إلى جانبها وأنا أكرر الصياح : تعالى تعالى ! إن ما ترين هنا ليس شيئاً ، إن الجمال كل الجمال فى المنظر الثالث ! وهبطنا معاً ، واجتزنا الصخرة ، ووقفنا تتحرك فى صدورنا آهات الإعجاب والتقديس . لم يبق جسر ، ولم تبق صخور ، ولم يبق ماء ، وإنما هو زبد ورغاء يندفعان بقوة أشد قوة فى هذا الالتواء ، فيخيل للإنسان أن الصخر سيميد ، وأن الأرض ستنشق ، وأن ستسقط السماء وتنهد الجبال هدًّا ، وهذا الزبد والرغاء ينبعث من قوة انحدارها رشاش كأنه البخار امتلأ به الجو كله أمام النظر ، فكأنما النهر كله بخار لا ماء فيه . والدوىُّ الهائل يزلزل السمع ويزلزل النفس ويزلزل الوجود كله زلزالاً عظيماً . والشمس فى السماء تحاول أن تخرق السحب لتبعث بشعاع إلى هذا المنظر ، فيستحيل الشعاع رشاشاً وبخاراً ، كأنه بعض هذا الماء الهائج فى انحداره ، وكأنه له ما للماء من دوى وزئير . ونحن والذين جاءوا ليشهدوا هذا المنظر وقوف نقدس القوة الهائلة تقديس إعجاب بل عبادة . وكيف لا نقدسها ولم يبق لنا عاصم منها غير الصخرة التى قد تتحطم تحت سلطانها فإذا نحن هباء ! ويصيبنا الوقت بعد الوقت منها رشاش ،فنستريح له كأنه ماء زمزم أو ماء بعض البقع المباركة . أليس هو أثر هذه القوة الطبيعية الكبرى ؟ أليس مظهر عظمة الوجود فى بعض أركانه ؟ أو ليس كلها مظهراً للعظمة مقدساً ؟ ورشاش العظمة مقدس كالعظمة نفسها ، أو له على الأقل بعض قداستها ! .

وأطلنا الانتظار أمام هذه الصورة البديعة من صور المساقط ، حتى كادت موليات النهار تنذرنا بضرورة الإسراع بالأوبة . لكن منظراً رابعاً لا يزال باقياً ، ويجب أن نهبط إليه ، فهبطنا . أترانى مستطيعاً وصف كل شىء من هذا الذى نرى ! لقد أصبحنا لا نرى

من المساقط إلا رشاشاً يندفع اندفاع القذيفة ويكاد يحطم ما أمامه تحطيماً . على أن هذا الرشاش انتشر أمامنا فأصبح عالماً استغرق كل حواسنا وكل حديثنا وكل تفكيرنا ، واستبقانا أمامه زمناً جاء خلاله جماعة تقدموا على سلم من الحديد إلى ناحية ، فإذا بهم قد امتدت إليهم منه ألسنة رجعتهم القهقرى فى خيفة وإعجاب . وفى هذه اللحظة تكشف بعض السحب ، فإذا الشمس قد انحدرت وراء الجبال وأرسلت من أشعتها ما ألهب الأفق . لكن الرغاء والرشاش لم يعبآ بهذا اللهب وبقيا فى ناصع بياضهما ، وكأنهما يقذفان إلى لجة النهر ثلجاً مندوفاً ما يكاد يصل إلى اللجة حتى يستحيل ماء مثلها ، له زرقة كزرقتها . ولما آن للنفس أن تستجم لتبتعث فى أطوائها هذه المناظر البديعة النادرة ، عدنا أدراجنا وقد تولانا من البهر ما ألقى علينا من وجوم الصمت بما لا مستطاع معه لأكثر من ألفاظ الإعجاب بقدس الجمال فى أحد مناظر الطبيعة البديعة . وارتقينا طريقنا حتى كنا عند المقاعد ، فإذا الناس قد بدءوا ينصرفون أن كانت لجة الليل قد بدأت تدعوهم إلى الانصراف ، وأن كان مطلع القمر متأخراً تلك الليلة . وانصرفنا نحن أيضاً نحدث أنفسنا ويتحدث كل إلى صاحبه بما تكنه نفسه وبفاحش ما يدعو إليه حكم النظرة الأولى من خطأ .

وعاد بنا الترام إلى شافوزن ، فرأينا فيها عيد الموسيقى البلدية ، ثم غادرناها بكرة الغد قاصدين اختراق الغابة السوداء . ترى أنكتفى منها بالمرور أم ننزل بها ؟ لكنا يجب أن نكون بكولونيا بعد غد كى نستعد لمؤتمرها . والذهاب من مـايس إلى كولونيا بطريق الرين الذى اعتزمنا ركوبه يقتضى يوماً كاملا . إذن فلنذهب مباشرة إلى مـايس ، ولنخترق هذه الغابة فى القطار . وكثيراً ما كان طريق القطار فى أجمل المواقع . ولعله كذلك كان فى هذه الغابة . فلقد كان يجرى بنا بين أشجار كثيفة قاتم لون ورقها ، لعله هو الذى دعا إلى تسميتها السوداء . فلما كنا على مقربة من تريبرج ، إذا بنا أمام جبال شاهقة ليست دون جبال سويسرا رفعة ، وإذا الأودية والغوطات عند سفوح الجبال منحدرة انحدارها فى سويسرا ، وإذا القطار يشق النفق إثر النفق حتى اجتاز أربعة عشر نفقاً . مناظر رائعة تجعل للذين يغرمون بجمال هذه الغابة السوداء الحق كل الحق فيما هم به مغرمون .

وظللنا بين الأشجار بعد ذلك حتى بلغ القطار « بادن بادن » ، وحتى اقترب بذلك من محاذاة الرين . لكن مجرى النهر ظل بعيداً منا ، وظللنا نمر بسهول فى أثر سهول تقوم عليها المزروعات المختلفة ، وبين حين وحين ترتفع فى الجو مداخن المصانع معلنة أن هذه المنطقة الغنية التى استهوت أفئدة الحلفاء فى أعقاب الحرب بما فيها من فحم ومعادن إلى

جانب ما يكسو أرضها من شجر ونبات ، هى منطقة صناعية بمقدار ما هى منطقة زراعية . وفيما نحن نشهد هذه المناظر فى روعة تعاقبها وننتظر السويعة الباقية على بلوغ مـاينس ، إذا بلد كامل زرعت أرضه كروماً ، لعلها من الكروم التى جعلت لنبيذ الرين شهرته . ثم تبدى النهر محاذياً القطار ، وظل كذلك حتى دخلنا مـاينس نقضى بها ليلتين ثم نغادرها تواً إلى كولونيا لنشهد معرض الصحافة ، ولنحضر مؤتمرها .

وقصدنا أحد فنادق مـاينس فقيل لنا إنه ليس به مكان . فقصدنا آخر فقوبلنا بهذه العبارة . وقصدنا ثالثاً ورابعاً ، وجعلنا ندور ومعنا فى العربة متاعنا ، حتى انتهينا إلى فندق واضطررنا إلى الإقامة به اضطراراً . ومع أن مـاينس مدينة جوتنبرج ، ومع وقوعها على الرين ، ومع ما بها من أشياء تستحق الوقوف عندها ، فقد كانت هذه الصعوبة التى قابلتنا فى الفنادق مما صرف أنفسنا عنها إلى حد كبير . ولقد لاحظنا فى أسفارنا جميعاً أن أول أثر يتركه بلد من البلاد فى نفس النازل به ، يتعلق بالفندق الذى يأوى إليه وبمقدار ما يجد فيه من راحة وطمأنينة ؛ فهو عنوان المدينة عند الإنسان ، وفضلا عن هذا فإن لطمأنينة الحياة المادية أثره فى الحياة النفسية . ألست تجدك إذا نزل بك همٌّ أو مرض رغبت عن كثير من ألوان التفكير والإحساس والشعر مما كنت ترغب من قبل فيه ؟ ولذلك كان توفير الطمأنينة المادية للناس من كل الطبقات مما يزيدهم إقبالا على الحياة ويزيدهم إنتاجاً فيها . بذلك قال الاقتصاديون بعد أن رآه أرباب الأعمال رأى العين . وعلى أساسه طلبوا للناس مزيداً من العلم بالحياة بكل ما فيها ليزدادوا بها استمتاعاً ، وعليها حرصاً ، وفيها إنتاجاً . على أن هذا الذى لقينا فى مـاينس وصرفنا إلى حد كبير عن زيارة أماكنها المختلفة كان له من ناحية أخرى أثر حسن ، ذلك أنا اعتزمنا أن نقضى اليوم الذى كان مقدراً أن نقيمه بها فى فرانكفورت التى تبعد عنها فى القطار السريع نصف ساعة . وفرانكفورت مدينة كبيرة فيها ضعف ما فى مـاينس من متاع . ثم إن فى فرانكفورت بيت الشاعر الفيلسوف الألمانى الكبير جيتى . ومهما يكن فى مـاينس مما يجذب النظر ويلفت الحواس فهو ليس ببالغ شيئاً إلى جانب ما تبلغه من النفس زيارة بيت جيتى . إذن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً .

وذهبنا فى اليوم التالى إلى فرانكفورت . ما هذه المحطات الضخمة التى تقابلك فى كل مكان فى ألمانيا ؟ فمنذ تركنا شافوزن ودخلنا الغابة السوداء ونحن لا نفتأ نرى بين حين وحين محطات دونها محطة عاصمتنا ، مع أن هذه البلاد ليست عواصم ، وما كان منها

عاصمة فهو عاصمة مقاطعة نعدها نحن مديرية . ومحطة ماينس ومحطة فرانكفورت من أكبر هذه المحطات وأفخمها . فإذا أنت خرجت من المحطة قابلتك فرانكفورت بعظمة وفخامة وجلال . وتسير فإذا طرق متسعة جميلة الرصف بالأسفلت متسعة الأرصفة ، تظلها على الجانبين أشجار لا أدرى ما حاجة أهل هذه البلاد الشمالية إلى ظلالها ، وفى القاهرة العظيمة لا نرى فى الشوارع شجرة تظل المارة فى أشد أيام الهجير . وتنتقل من ميدان المحطة الفسيح فإذا بك بعد زمن قصير فى ميدان ليس أقل منه سعة ، وهو محاط بالحدائق والتماثيل ، وفى أحد جوانبه تمثال بسمرك العظيم ، وعلى مقربة من هذا الميدان ميدان آخر فيه من ناحية تمثال لجوتمبرج تحف به من حول القاعدة تماثيل نسوة تمسك كل واحدة بيدها أثراً من آثار الطباعة أول عهد الناس بها ، وفيه من الناحية الأخرى تمثال لجيتى يطل على الحدائق البديعة نسقت من حوله . وكذلك تجدك تجتاز طريقاً فسيحاً إلى ميدان كالأولين أو أعظم منهما . وكذلك تظل حتى تصل إلى فرانكفورت القديمة التى لم تكن قد عرفت الأوتموبيلات والأوتوبيسيات والترامويات ، والتى كانت كذلك فى غنى عن هذه السعة فى الشوارع ، فإذا بك ترى طرقاً ضيقة ومنازل قديمة ، وإذا فى إحدى هذه الطرق بيت جيتى .

وأخذنا تذاكر الدخول ، ودخلنا وفى النفس للمكان إجلال ومنه هيبة . هنا ولد وتربى شاعر ألمانيا وفيلسوفها العظيم . وعلى هذا السلم الذى ترتقى للأدوار العليا ثم تهبط — ومن يدرى فلعلنا لا نعود إليه بعد أبداً — وطئت قدماه مئات المرات بل ألوفها . وفى تلك الحديقة الصغيرة التى تراها فى فناء الدار جلس يفكر ويستوحى آلهة الشعر والحكمة . وبوحى هذه الآلهة كتب آياته فى « فوست » وفى « فرتر » وفى غيرهما من كتبه الخالدة التى جعلته رجل العالم كله بدل أن يكون رجل ألمانيا وحدها . نعم ! هنا ولد جيتى وتربى ونشأ وكتب . وإلى هنا قصدنا ويقصد الناس لتمتلئ نفوسهم هيبة بذكرى جيتى وما خلد على الزمن من أثر عظيم . وسواء لديهم أكانت دار جيتى كوخا أم قصراً ، وسواء أكان أثاثها مخملا أم صوفاً ، فليس ذلك يعنيهم إلا لأن فيه تجلت آثار هذه الروح الكبيرة التى وجهت تفكير العالم وشعوره وجهة أسمى ، وجعلت للحياة شعراً أغزر مادة وأقوى إلهاماً ، وهدت الناس السبيل إلى متاع بحياة العاطفة أعمق غوراً وأبعد أثراً .

وهذه الدار التى نشأ فيها جيتى هى دار أبويه ، وهى تدل على أنهما كانا على حظ

من السعة غير قليل ، وأن أباه كان رجل علم ودراسة ؛ فنشأ هو بين الكتب والموسوعات فتذوق منها خياله وتذوق عقله ، كما نشأ على ضفاف نهر المين وعلى مقربة من الرين وبدائع جماله ، فأحب الحكمة والجمال جميعاً ، وعرف الفلسفة والشعر معاً ، وأولع بالعلم وما يقتضيه من منطق ، كما هام بالخيال الفسيح تمد بدائع الرين فيه وتزيده سعة وفسحة .

ترتقى إلى الطابق الأول على سلم خشبي متسع ، فتقابلك عند وصولك إلى هذا الطابق صالة فسيحة وضع فيها تمثال لجيتى حين كان فى الثانية والثلاثين من عمره ، كما ترى بها مكتبة أبيه وفيها من الكتب الفرنسية والكتب الألمانية ما يغطى أكثر جدرانها . أما مكتبته هو ففى الطابق الثانى ، وهى لا تزيد على رفوف قليلة من صنع يده حين كان صبياً ، وبها بعض كتب هى كتبه المختارة . أما المكتب الذى كتب عليه « فوست » و« فرتر » والدواة والريشة اللتان خطتا هذين الكتابين العالميين ، فكلها بسيطة أشبه ما تكون بأدوات تلاميذ المدارس الثانوية . وليس حول المنزل مما كان قائماً أثناء حياة الشاعر الفيلسوف ما يوحى معانى الجمال أو الحكمة . فحكمة جيتى وصور الجمال التى صورها إنما كانت قائمة فى نفسه . وكانت أثراً من آثار دراسته وجولاته بين مختلف صور الطبيعة يختزنها ثم يقلبها ، ثم يتمثلها ، ثم تصبح بعضاً منه ، ثم تفيض عنه ، فلا يرى مفراً من تسطيرها على الورق لتكون هذه الآيات البينات التى أورثنا . وغير مكتبة الأب ومكتب الابن ترى مخلفات جيتى فى هذا المنزل بالغة كلها غاية البساطة . فإذا عدت إلى الطابق الأرضى ودخلت إلى مطبخ البيت ، وجدت من عناية أم الشاعر به ما يدلك على أن القوم كان لهم بالطعام ولع ، ولفن الطعام إكرام وتقدير . فليس شىء من معدات طهى النشويات والحلويات وغيرها إلا تجده كاملا . وإلى جانب المطبخ غرفة الطعام بها غير المائدة والمقاعد عدة تطريز لأم جيتى ما يزال باقياً عليها أثر من آثار يدها ، ولعلها كانت تظل فى هذه الغرفة أثناء طهى الطعام لتباشره ولتشرف عليه ، ولتستوثق من أنها وزوجها وابنها سينالون من شهى الغذاء ما تطمئن له بطونهم وقلوبهم ، وتستريح له نفوسهم وأعصابهم .

على أنك واجد إلى جانب حديقة الفناء متحفاً صغيراً يدلك على أن الشاعر الكبير كان يعنى بالجمال لذاته عناية معناها أن الجمال كان بعض جوانب نفسه ، أو أنه كان ضياء هذه النفس فأضاءت به على الوجود كله . فهذه الصور والمناظر البديعة النقش والتلوين تدل على دقة فى الاختيار وعلى ذوق للجمال يقدر حقاً معنى الجمال . وهذه الموضوعات التى تمثلها الصور من مظاهر العواطف المختلفة تحدث عن نفس دقيقة

الحس هى نفس الشاعر بمعنى كلمة الشاعر فى كماله . فإذا أضفت هذه الناحية من نواحى نفس جيتى إلى الناحية التى يدل عليها ولعه بالكتب ناحية الحكمة والفلسفة ، وإلى الناحية التى تكونت من عناية أمه بطعام الأسرة جميعاً ، عرفت كيف تأتَّى لهذه المواهب الممتازة أن تؤتى كل تلك الثمرات الشهية الخالدة .

وغادرت هذا البيت البسيط القديم ونفسى تحدثنى كيف يترك هذا المنزل من الأثر فيها أبلغ مما تركت آثار الملوك وذوى التيجان بالغة ما بلغت عظمتهم ، وكيف يكون له من الإجلال والاحترام أكثر مما كان للقصور التى رأيت فى الآستانة وفى بودابست وفى فينا وفى فرساى وفى وندسور . ولم يكن جواب نفسى عن سؤالها عسيراً . فتلك القصور الفخمة الضخمة كانت تأخذ العين عمارتها والنفس عظمتها . وعمارتها البديعة وعظمتها الفخمة ليست من صنع الملوك الذين أقاموا بها والذين جعلوا أنفسهم أرباباً فيها ، وإنما هى من صنع موهوبين فى الفن وفى العمارة ، كما كان جيتى موهوباً فى الشعر وفى الحكمة . فنحن إذن لا نذكر الملوك الذين نزور قصورهم ، وإنما نذكر بديع صنع الصانعين فيها . وإذا كان لهؤلاء الملوك أنفسهم من ذكر فقلما يخلو مما تغص به النفس ويضيق له الصدر . أما هذا البيت البسيط القديم فعظمته ليست فى عمارته ولا فى أثاثه ولا فى نقوشه ، وإنما عظمته فى عظمة ذكرى الروح العظيم الذى أفاض ويفيض على الإنسانية جميعاً حكمة وشعراً وجمالا .

* * *

وعدنا آخر النهار إلى ماينس ، حتى إذا كان الصباح بكرنا باليقظة وذهبنا إلى الباخرة النهرية التى تقلنا على نهر الرين إلى كولونيا . وكما تقع فرانكفورت مسقط رأس جيتى على أحد روافد الرين كذلك تقع « بون » مسقط رأس الموسيقار النابغة العظيم بتهوفن . والرين وشواطئه بين كولونيا وبون قصيدة جديرة بعبقرية جيتى ، وأنشودة جديرة بنبوغ بتهوفن . تقع العين من هذه الهضاب الخضراء على شعر وعلى أنغام تشيع فى النفس البهجة والطرب ، وتستثير فى جوانب الفؤاد لحن المسرة الذى اقتضى بتهوفن كل حياته الموسيقية ليضعه وليطرب له . ولقد كنت أعجب لكاتب كبير مثل « لوتى » كيف تتكرر فى كتاباته عبارات الإعجاب والهيام والبهر والجمال والروعة فى وصف المناظر المختلفة التى تقع عليها عينه ، وكيف يقف فنه البديع عند هذه الألفاظ العامة ، وكيف لا تترجم له المناظر التى يراها عن أفكار

مختلفة . أما اليوم وأنا أتخطى من سويسرا إلى الغابة السوداء إلى شاطئ الرين ، فأرى « للوتى » أبلغ العذر . إن أغنى اللغات لأعجز عن أن تعبر عن هذه الصور المتتالية من الجمال الساحر بأكثر من هذه الألفاظ . ولست أدرى أتستطيع أنغام الموسيقى التى تتحدث إلى النفس دون استعانة بغيرها أن تعوضنا عن هذا الجمال ألحاناً . وأنا الآن إذا حاولت أن أصف ضفاف الرين بين كولونيا وبون فلن أجد من العبارات إلا ما سبق لى ذكره . فهى جبال قليلة الارتفاع ، تغطيها الخضرة المختلفة الألوان ، فتضحك ، أو بعبارة أدق ، تبتسم أمام النظر ابتسامة الغبطة والنعيم ، وتبعث إلى النفس بهذه المشاعر . والنهر خلال هذه الجبال يتلوى يمنة تارة ويسرة تارة أخرى ، ويتجلى أمام عينك على سفوح هذه الجبال الزاهية بخضرتها المزدهرة منازل وقرى ومدائن وقصور . وبينا أنت بالمنظر الذى أمامك مأخوذ إلى حد البهر ، إذ ترى النهر يستدير من جديد ، وإذا منظر آخر هو الجبل والخضرة كذلك ، ولكنه جبل غير الجبل ، وخضرة غير الخضرة ، وجمال غير الجمال ؛ فبهر غير البهر وغبطة غير الغبطة ونعيم غير النعيم . وهذه الحصون القديمة تمر بك فتحدثك عن تاريخ قديم ما تكاد تذكره حتى تنسيك إياه الخضرة المتجددة الحياة مع كل يوم جديد . وتحسب نفسك كلما تلوى النهر حبيساً فى بحيرة من بحيرات سويسرا أسيراً لفتنة جمالها ، لولا أن الجبال دون الجبال ارتفاعاً وإن كانت الأشجار وخضرتها لا تقلّ عن الخضرة والأشجار رواء وروعة . ويبلغ منك هذا الجمال حتى تود لو ترى جبلا أجرد السفح أو سهلا يمرح النظر فى امتداده ، ولا ينيلك الرين ولا شواطئه من مبتغاك شيئاً . وتذكر من تلوّى الرين تلوى البسفور وتلوى الدانوب عند أبواب الحديد . والبسفور ، ولا ريب أروع بمياهه البديعة الزرقة ، وبجباله المختلفة الألوان ؛ لكن خضرة سفوح جبال الرين أكثر نضرة وأبهى غضارة وأدعى للإعجاب بالإنسان ومعونته الطبيعية لتزداد على جمالها جمالا . وأبواب الحديد على الدانوب أكثر مهابة بعظيم ارتفاعها ؛ فالإنسان بينها فى شعور دائم بالرهبة والجلال ؛ لكن ابتسامة الرين العذبة أشهى وأحلى ، ويزيدها عذوبة أنها ليست ابتسامة متكررة فى صورة واحدة ، بل هى تختلف ، كما تختلف ابتسامة المرأة الجميلة بين ابتسامة السرور وابتسامة الرضا وابتسامة الإعجاب وما شئت من ابتسامات هى للنفس نعيم وغبطة ومسرة . وتقف الباخرة عند كوبلنز وعند بون . ويتغير أثناء ذلك لون السماء ، ويهتن المطر فلا يزيدها هذا التغير فى الجو والمناظر إلا بهاء وروعة . وتخطر الباخرة الضخمة بعد بون والناس مطمئنون لما يجدونه فيها من كل ألوان المتاع ، حتى تصل

إلى كولونيا بعد الساعة الخامسة ، أو بعد الساعة السابعة عشرة ، كما يقول الأوربيون .

وكذلك وصلنا كولونيا ، وكذلك كنا فى المدينة التى أقيم فيها أول معرض عالمى للصحافة ، والتى يعقد فيها أول مؤتمر عالمى للصحافة كذلك ، وهى كذلك المدينة التى تقوم فيها أبدع كنائس ألمانيا القديمة . فلنقم بها حتى نشهد المعرض والمؤتمر ، وحتى نرى ما يهيئ لنا المعرض والمؤتمر فرصة رؤيته من مشاهد وآثار .

obeikandl.com

معرض الصحافة فى كولونيا

تقع كولونيا على ضفة الرين اليسرى ، وتتصل مع ضفته اليمنى بجسرين وبجسر ثالث كان قائماً من القوارب المتصل بعضها ببعض من شاطئ إلى شاطئ ، وقد زال الآن ليحل محله جسر آخر . وعلى هذه الضفة اليسرى تقوم نواح ضمت إلى كولونيا منذ سنة ١٩١١ ، وإن كانت مبعثرة على الضفة هنا وهناك بحيث ترى بين كل واحدة منها والأخرى منبطحات فسيحة مغطاة بالحشائش الخضراء . ويقوم أحد هذه المنبطحات على الرين مقابلا لكولونيا ، وكانت تقوم على بعض أجزائه فى الماضى معسكرات ألمانية من معسكرات عاصمة الرين التى كانت من أمنع الحصون . ولم تكن منعتها ترجع إلى حاجات الدفاع عن ألمانيا وكفى ، بل كانت ترجع كذلك إلى أن كولونيا حصن الكاثوليكية فى ألمانيا البروتستانتية . فكان من رأى الحكومة المركزية أن تحتفظ فيها بقوى كثيرة حتى لا تفاجأ فيها بثورة أو بانتفاض .

على المنبطح المقابل لكولونيا أقيم معرض الصحافة ، أو بعبارة أدق ، أقيمت مدينة الصحافة . وهذا الحصن القديم الذى جرد منذ زمن من قواته ، قلب نظامه فأصبح قسماً من هذا المعرض ، نظم فيه تاريخ الصحافة فى العالم على وجه علمى له حديث بعد . وَبُنِيَ بعد هذا الحصن قسم فسيح عرضت فيه الصحافة الحديثة وحاجاتها المتعددة وصلاتها بكل أسباب المعرفة والإذاعة فى العالم .

ومن بعد هذا القسم أقامت بعض الصحف الألمانية وبعض مصانع المطابع « الروتاتيف » الألمانية دوراً لها . ثم أقيم بعد ذلك ، فى نصف دائرة ، معرض صحافة الدول المختلفة ، خصص فيه لكل دولة مكان بمقدار ما طلبت منذ بداءة المعرض . وأمام هذا القسم نافورة مياه بديعة تقع وراءها وعن جوانبها مقاه ومطاعم . ثم تمتد الخضرة بعد ذلك فسيحة ذات نضرة إلى مرمى النظر . وفى منتهاها وعند حدود المعرض تقوم أماكن اللهو « غير الخفى » على حد تعبير القائم بأعمال القسم المصرى . وفى هذا القسم قسم الملاهى تعلن المتاجر والمصانع المختلفة عن تجارتها وعن مصانعها فى صور من الإعلان شتى .

ويكاد يستحيل على العين أن تحيط بجوانب المعرض ولو وقف الناظر فى نقطة الوسط

منه . على أنه يؤخذ ، ولا ريب ، فى موقفه هذا بحدائق المعرض وبفروش الحشائش فيه ، قبل أن يؤخذ بدوره ومبانيه . وليس ذلك لأن عمارة هذه الدور لا تلفت النظر ، كلا ! فهى ببنائها جميعاً بالآجر ، وببرجها العالى ، وباستدارة قسم معارض الدول تأخذ العين وتستوقف الالتفات . على أن حدائق المعرض ونافوراته ومبانى المقاهى والمطاعم المبعثرة فيه ذات بهجة ، وأبهجها هذا القسم الفاصل بين مبانى المعرض ومقاهى الحشيش ؛ فهو حديقة جميلة تزينها الأزهار وترتفع فيها مياه نافورة ، على حين تنعقد فوق نافورة أخرى قبة المياه المندفعة من جوانبها يداعبها شعاع الشمس أثناء النهار ، كما تنعكس عليها فى الليل مختلف ألوان ضوء الكهرباء المنبعث هو أيضاً من بين منابع المياه .

ولقد عنيت مدينة كولونيا إلى جانب هذا التجميل للمعرض وإقامة أسباب الراحة والسرور به بتجميل ما جاور المعرض من أجزاء المدينة وتمهيد أسباب الراحة لزائريها الذين يقصدون المعرض . فى كل ليلة تنير جسر « هوهنزلرن » وتنير لجة مجاوراته بما يضىء صفحة النهر بضياء عسجدى يكاد يكسف أنوار البواخر النهرية التى ما تفتأ على النهر فى ذهاب وأوبة . وفى مكانين مختلفين على شواطئ النهر ينزل زوار المعرض إلى فلائك بخارية تنقلهم من المعرض وإليه طيلة النهار وإلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . أليست المقاهى والملاعب تبقى مفتوحة إلى الساعة الثالثة صباحاً ؟ . فليتوافر لقاصديها أكبر قسط من الراحة كما توفر المدينة لهم فى أنوار الجسر من بهجة العين ما يسرها ، وكما تزيدهم سروراً بين آن وآن حين تضىء قبة الكنيسة التاريخية الكبرى .

وحسناً يفعل الذين يقيمون المعارض إذ يجمعون فيها اللهو إلى جانب ما يعرضون . فى اللهو ما يغرى كثيرين بالذهاب إليها وبمشاهدة المعروضات ، والاستفادة من هذه المشاهدة استفادة يثابون بها رغم أنوفهم . ثم إن الذين يقصدون المعارض للدراسة والبحث فى حاجة إلى الراحة كلما أجهدتهم الدراسة وأتعبهم البحث ، وفى حاجة كذلك إلى التسلية واللهو . ومثل معرض الصحافة أحوج لهذا الجمع من سواه من المعارض ؛ فهو معرض عقلى وعلمى ، وهو لذلك أشد للباحث إجهاداً وأقل لغير الخبير استلفاتاً . فإذا لم يكن إلى جانبه ما يسلى المجهود وما يستبقى غير الخبير تثاقل قاصدوه ومل زائروه ، وفاتت بذلك الفائدة الكبيرة المرجوة منه .

وهذا المعرض الدولى بكولونيا من أشد المعارض استنفاداً لمجهود الخبراء وأقلها لفتاً لغيرهم ، ما عدا بعض أجزاء منها كانت الدعاية فيها مقصودة أكثر من الصحافة ومن

العلم ؛ وهو لذلك أشد احتياجاً لما يجذب إليه . فهذه الحدائق والمقاهى والملاهى هى بعض الضروريات التى لا مفر منها فيه ، وهذا القطار الصغير ، أو القطار القزم ، كما أسمته إدارة المعرض ، يطوف بالزائرين فى مختلف جوانبه ويروِّح عنهم بعض الشىء من تعبهم . ثم إن المعرض فى حاجة إلى ذلك كله ؛ لأنه متسع مناحى البحث ، لا يكفيك لزيارته زيارة مفيدة يوم أو أيام . ولعلى لا أبالغ إذا قلت إن الذى يقصد إلى دراسة المعرض دراسة علمية صحيحة بحاجة إلى أسابيع يقصرها على هذه الغاية وينتهى منها إلى الإحاطة بالصحافة كعلم إحاطة جمة الفائدة .

ومع هذا التوسع فى عرض تاريخ الصحافة والطباعة توسعاً يكفى للإحاطة العلمية بهما ، فقد توجه أكثر من واحد من الكتاب والصحفيين فى الأمم المختلفة باعتراض على المعرض وعلى وصفه بالدولية ؛ لأن ألمانيا وحدها استقلت بعرض تاريخ الصحافة والطباعة ، ولأنها استأثرت فى الصحافة الحالية بوضع ما رأت عرضه من أسبابها وأدواتها ، ولأنها لم تترك للدول الأخرى أكثر من عرض ما عندهم فى دورهم المختلفة . وزاد بعضهم على هذا الاعتراض اعتراضاً آخر ، هو أن لوحات المعرض كتبت جميعاً بالألمانية ؛ والألمانية ليست من جهة اللغة الدولية المعترف بها ، وليس من جهة أخرى ما يحول دون كتابة هذه اللوحات بعدة لغات . وقد يكون لكل من هذين الاعتراضين وجاهته ، وإن كان الإنصاف لا يبرئ كلا الاعتراضين من التطرف فى معنى الدولية . وهو تطرف دعا إليه اعتزاز كل بقوميته يريد أن يكون لها نصيب من الاشتراك فى المعرض وإدارته . ومن التطرف مطالبة الألمان أن يعترفوا بأن لغتهم ليست لغة دولية ، إذ كل اعتراف من هذا القبيل فى الظروف الحاضرة يجرح عزتهم القومية ويعيد لهم ذكرى مؤلمة لما أصابهم فى الحرب الكبرى .

وكان للألمان بالقسم التاريخى الذى نظموه اعتزاز أى اعتزاز . سألنى مدير المعرض بعد أربعة أيام من مقامى بكولونيا ومن مقابلتى الأولى له : أزرت المعرض ؟ وهل أعجبنى ؟ فلما أجبته أنى طفت به جميعاً ولم يبق إلا القسم التاريخى ، كان جوابه : لكن القسم التاريخى أهمُّ أقسام المعرض وأدعاها للإعجاب . ولقد صدق الرجل إلى حد كبير . وتجلى لى صدقه فى اليوم التالى لحديثنا هذا ، مع أن زيارتى لذلك القسم التاريخى كانت زيارة عجلى ، حتى لقد فاتنى أن أمر ببعض غرفه العليا ، ومع أن سكرتير المعرض الذى تفضل فصحبنى أثناء هذه الزيارة لم يكن لديه من فسحة الوقت أكثر من ساعتين يدلنى فيهما على ما لم أتمكن من معرفته بتلك اللوحات المكتوبة بالألمانية وحدها .

فهذا القسم التاريخى يعرض الطباعة ، ويعرض صناعة الورق . ويعرض الصحافة من أول نشأتها ، ويعرض كذلك الأدوات التى استعانت بها الصحافة لاستقاء أخبارها من رجالة وفرسان وحمام زاجل ومركبات تجرها الخيل وبريد وبرق ولاسلكى فى عصورها المختلفة ، ويعرض ذلك كله عرضاً علمياً دقيقاً ، ويبين لك الكثير منه ، ويبينه لك كله كما كان فى مختلف عصوره . فمطبعة جوتنبرج موجودة شبيهتها ، وموجود إلى جانبها من العمال من يرتدون ملابس عصر جوتنبرج . وصناعة الورق فى أيامها الأولى كذلك . أما طرق الأخبار فمصورة بالرسوم أحياناً وبالتماثيل الصغيرة أحياناً أخرى . ولعل الكثيرين يضحكون مما كان يصنع آباؤنا فى عصورهم الماضية ، وإن كان آباؤنا فى تلك العصور كانوا يزهون بما عندهم زهونا نحن اليوم بما عندنا . على أنك إذا انتقلت من هذا القسم الذى يعدُّ قديماً ويعدُّ فاتحة عهد الطباعة والصناعة إلى ما تلاه حتى يومنا الحاضر ، رأيت تطورات مدهشة فى فكرة الصحافة نفسها وفى طريقة عرضها للأشياء والآراء . فصحافة الثورة الفرنسية غير صحافة نابليون وغير صحافة سنة ١٨٤٨ وغير صحافة الأجيال التى تلت ذلك حتى جيلنا الحاضر . ولعلك مستطيع أن تستخرج من هذه التطورات التاريخية مذاهب فى الصحافة لا تقل شيئاً فى تأثيرها فى الحياة العالمية عن المذاهب الاقتصادية والمذاهب الدينية . ولا ريب أنه إذا كانت المذاهب الاقتصادية قد تركت فى حياة الإنسانية أثراً كالذى تركته المذاهب الاجتماعية والمذاهب الدينية والمذاهب العلمية ، فإن المذاهب الصحفية قد تركت مثل هذا الأثر أو أكثر منه . وتدل معروضات القسم التاريخى فيما تدل عليه على أن الصحافة قد حظيت بنصيب من الحرية فى مختلف العصور أكثر مما حظيت المذاهب الاقتصادية والدينية . وقد أباحت هذه الحرية الصحفية لمذاهب الصحافة المختلفة — صحافة الرأى وصحافة الأخبار وصحافة التهكم بالكلام أو بالتصوير — أن تتجاور فى غير عداوة كالعداوة التى توجد بين مذاهب الاقتصاد أو الدين المختلفة مما يتدخل القانون لقمعه . ثم إنى ما أحسب قوة اجتماعية كالصحافة استطاعت أن تستفيد من كل مبدعات العقل البشرى فى الكشف أو الاختراع استفادتها مما أنتجه الخيال والشعر والفنون جميعاً . وقوة هذا شأنها جديرة بالبحث العلمى الصحيح .

وأنت تستطيع أن تستكمل صورة تطور الصحافة إذا انتقلت من القسم التاريخى الذى لم يترك صورة من صور الصحافة فى مذاهبها المختلفة ، ومن بينها الصحف العلمية والصحف الأدبية والصحف النسوية والصحف الفنية وصحف الألعاب الرياضية وتطورات

كل من هذه الصحف فى مختلف العصور ، إلى القسم المجاور له فى المعرض والذى يعرض تفاصيل صحافة العصر الحاضر والأدوات المتصلة بها . وإذا كان طابع هذا القسم ألمانيًّا صرفاً فإن الصحافة فى ألمانيا اليوم لا تختلف عن الصحافة فى غيرها من أمم العالم . فإذا أنت وقفت من هذا القسم عند الصورة التى وضعت لتبين كيفية اتصال العالم التلغرافى واللاسلكى ورأيت المحطات المختلفة مصورة أثناء اشتغالها بما يتصل بها ويصدر عنها من حركات الكهرباء ، لم تكن أمام صورة للصحافة الألمانية وحدها بل للصحافة فى كل أمم العالم فى الوقت الحاضر . وإذا أنت انتقلت إلى قسم البريد ونظامه ، كنت كذلك أمام نظام البريد فى مختلف أمم العالم . على أن الصحفى المصرى يشعر أمام ما يرى بالأسف أن كانت هذه الاختراعات وكل هذا التقدم العلمى دون أن يكون لمصر منه نصيب . ثم هو يشعر كذلك بأسف خاص حين يقف أمام ماكينات كثيرة تستفيد منها الصحافة فى أمم أوربا ولا تستطيع الصحافة العربية الاستفادة منها ، بسبب عدم إتقان أشياء كثيرة خاصة بالحروف العربية . من ذلك « اللينوتيب » فى صوره المختلفة ؛ فهو يسمح للصحف الغربية أن تطبع كل يوم بحروف جديدة يراها القارئ نظيفة واضحة سهلة ، على حين تبقى صحفنا فى استعمالها للحروف الموزعة فى الصناديق تطبع شهوراً متعاقبة بهذه الحروف عينها ، حتى تراها فى زمن من الأزمان متآكلة يكاد يغيب عنك منها الشىء الكثير ، ويكاد يضيع لذلك عليك ما يقصده الكاتب . كذلك ماكينات الكتابة المتصلة اتصالاً كهربائياً والتى تسمح لك أن تكتب على إحداها فى بلد من البلاد ، فإذا ما كتبته قد خطته الماكينة الأخرى فى بلد آخر ، كما تحدّث أنت شخصاً بالتليفون وأنت فى بلد وهو فى آخر . وربما كان لدى الصحفى المصرى ما يقلل دواعى الأسف ألا تتمتع الصحافة العربية بهذه الاختراعات الجديدة باستعارة ما فى أوربا ، وهو صعوبة هذه الاستعارة ، لحاجتها إلى من يمهد للعربية ما تفيده من هذه الاختراعات ، ولحاجتها بجانب ذلك إلى رءوس أموال طائلة ما تزال الصحافة وما تزال الطباعة العربية على العموم قاصرة دون الحصول عليها .

ومن إضاعة الوقت وصف هذه الآلات والأدوات التى تشغل طابقين كبيرين فى المعرض . فلن يستطيع الواصف تصوير الأشياء تصويراً يجعل القارئ بحيث يراها أو يدرك من أمرها إلا بمقدار ما يسمع عن المخترعات الكثيرة فى التلغراف اللاسلكى والتليفون اللاسلكى والراديو ، وما يقرأ عن المطابع التى تطبع أربعين ألفاً فى الساعة وأكثر . ثم إن هو حاول هذا التصوير فلن تكفى لوصف كل ماكينة رسالة طويلة ينتهى الشعر والخيال بالتغلب فيها

على الوصف الفنى الدقيق الذى لا يعنى به إلا الفنيون ، وقليل هم بين القراء ، وقليلة حاجتهم إلى الوصف ؛ لأنهم يريدون أن يروا رأى العين وأن يفهموا فإذا أنا أشرت إلى التلغراف وإلى البريد فى الحديث من أقسام المعرض ، وأشرت إلى تطور الطباعة وتاريخ الصحافة فى القسم التاريخى ، فما ذلك إلا لتكون أمام القارئ فكرة عن كل من هذين القسمين اللذين يعرضان تطور الصحافة عرضاً مستوفى دقيقاً .

يبقى بعد القسمين السابقين قسم ثالث اصطلحت إدارة المعرض على تسميته بأقسام الدول أو بمعارض الدول . وفى هذا القسم عرضت كل دولة ما رأت عرضه من أمر صحافتها وتاريخها وحاضرها عدا ألمانيا . ذلك بأنها كما رأيت العامل المهم فى المعرض كله ، وبأنها تريد أن تكون للمعرض إلى جانب صبغته الدولية صبغة ألمانية ، معناها أن لألمانيا برغم الأحداث الأخيرة من العظمة ما لا تزعزعه الأحداث . لذلك تركت ألمانيا لكل صحيفة ألمانية شاءت أن تقيم لنفسها معرضاً خاصاً مستقلا تعرض فيه مطبعتها وتعرض فيه مطبوعاتها .

وأقسام الدول أو معارض الدول تستثير من عنايتك الشيء الكثير . ذلك بأن أكثرها لا يقف عند عرض الصحافة وتاريخها وأطوارها وأدواتها عند هذه الأمم ، بل يتعدى ذلك إلى شيء من نشر الدعوة لما ترى هذه الأمم ضرورة نشر الدعوة له مما فى بلادها . فروسيا التى تشغل قسمين كاملين من أقسام المعرض تبهر الأنظار بشيء لا علاقة له بالصحافة ألبتة . فأنت ترى حركة دائمة فى أسطوانات تدور ، وعجلات تدير شرائط طويلة كتبت عليها عبارات مختلفة ، وأنواراً تضيء وتنطفئ ، وضجة تقفك عندها بالرغم منك ، هذه الضجة هى الدعاية للبلشفية ولما يزعم الروسيون لها من أنها أسبغت على روسيا من خيرات وجرَّت لها من مغانم دفعت الكل إلى التلذذ بالعمل والسعادة فى الحياة . وما أكثر ما يقع نظرك على أرقام يزعمون أنهم يؤيدون بها أقوالهم هذه ؛ وليس يدرى أحد مبلغ حظها من الصدق ولا مدى إمعانها فى الكذب .

كما تنشر روسيا الدعوة للبلشفية تعرض السويد فى صورة رقيقة ظريفة مصنوعاتها المختلفة وما امتازت به من ثروة وما فى بلادها من جمال تتيسر رؤيته لمن يشاء بسبب سهولة المواصلات . فأما سويسرا فشطر من معرضها مخصص للدعوة إلى السياحة فيها . والسياحة فى سويسرا هى فى الحق شطر كامل من حياة سويسرا ، وأما أسبانيا فدلت بما بالغت فى تجميل معرضها بأنها لا تزال يجرى فى عروق أبنائها مقدار غير قليل من دم العرب الأندلسيين

لم يتل القارئ فيما سلف شيئاً عن الصحافة فى معارض الدول . ولى عن تقديم ما قدمت مما فى هذه المعارض عذرى . فهو أكثر فيها ظهوراً من الصحافة وأمرها ، وهو الذى يستوقف النظر للوهلة الأولى ، ثم هو كل شىء فى بعض المعارض . فليس فى معرض تركيا إلا بضع سجاجيد عرضها محل من محلات السجاجيد . وليس فى معرض رومانيا إلا بعض ملابس للسيدات تباع وتشترى . فأما الصحافة فى هذين المعرضين فلا تزيد على مجموعة جرائد ملقاة على منضدة كتلك المجموعات التى تراها فى الفنادق والمقاهى معدة ليسلى القراء بها وقتهم فلا يشعروا خلاله بالملال . لكن ذلك ليس معناه أن الصحافة لم تعرض فى المعارض كلها على الصورة الواجبة . فلقد عنيت بعض الدول بأمرها العناية التى تجعلها حقًّا فى المحل الأول من مرافقها جميعاً . عنيت بعض الدول بأمرها من الجهة التاريخية . ومن الجهة الإحصائية ، ومن ناحية الطباعة والتوزيع ، عناية بالغة غاية الجمال ، قريبة كل القرب من تصوير الحالة العلمية للأمور الصحفية فى كل واحدة من تلك الدول . ولنأخذ سويسرا مثلا ؛ فأنت ترى على جدرانها خرائط إحصائية بالصحف التى كانت تظهر فيها منذ مائة سنة أو أكثر ، وبتطور هذه الصحافة مع الزمن إلى وقتنا الحاضر . وليست تقف تلك الإحصائية عند الأرقام العامة عن مجموع الصحف ، بل هى تتناول مع ذلك من التقسيم ما يدلك على تطور الصحف على اختلاف أنواعها من سياسية واجتماعية وعلمية وغيرها . وإلى جانب هذه الخرائط الإحصائية إحصائية بالصحف السويسرية الحاضرة ، وأخرى بتقسيم هذه الصحف إلى جرائد رأى وجرائد أخبار . ونسبة جرائد الرأى إلى جرائد الأخبار فى سويسرا هى ٩٨ فى المائة لجرائد الرأى و ٢ فى المائة لجرائد الأخبار . ويدهش الناظر لهذه النسبة المئوية فى زمننا هذا الذى تتزايد فيه الجرائد الإخبارية حتى تكاد تطغى على جرائد الرأى وتضطرها إلى أن تجعل القسم الإخبارى منها ذا أهمية كبيرة . لكن دهشته تزول حين يرى إلى جانب هذه النسبة السبب الذى أدى إليها . فسويسرا هى المثل الأعلى للبلد الديمقراطى . كل مديرية من مديرياتها (Canton) مستقلة بشؤونها الداخلية . وكل واحدة من هذه المديريات تحكم نفسها ، لا بطريق الانتخاب المباشر ، بل بطريق التصويت المباشر . فكلما أريد اعتماد مبلغ من المبالغ ، أو سن قانون من القوانين ، وجب أخذ رأى الشعب . ولكى يستنير الشعب يجب أن تؤيد أمامه أوجه النظر المختلفة لقبول الاعتماد أو لرفضه . والصحافة هى الوسيلة لهذا التأييد . لهذا كانت صحافة سويسرا صحافة رأى . ولتعدد المديريات كانت صحف سويسرا كثيرة العدد جدًّا بالنسبة لمجموع السكان والمساحة . وكان السويسريون

لهذين السببين من أكثر أهل الأمم قراءة للجرائد ، وكان لابد لذلك من استنباط الوسائل لسهولة توزيعها . ووسائل التوزيع وغيرها مما يتصل بالصحافة فى سويسرا معروض أيضاً على صورة جذابة أخاذة للنظر .

وبمثل هذه العناية عرضت السويد وعرضت بولونيا وغيرهما شؤون صحافتها على صورة تختلف عن الصورة التى عرضتها بها سويسرا ؛ لأنها تتفق مع الحياة العامة لكل واحدة من هذه الأمم . وقد يعجب الإنسان إذ يعلم أن فرنسا وإنجلترا وأمريكا أقل الدول عناية بعرض شؤون صحافتها فى هذا المعرض الألمانى الدولى . وقسم فرنسا معروضة فيه شؤون الصحافة الفرنساوية ونتف من تاريخها عرضاً أنيقاً ، ولكنه لا يدل على كثير مما يريد المدقق أن يقف عليه من شؤون صحافة بلاد الثورة الكبرى والثورات التى تلتها .

وقد يود القارئ أن يقف على الطريقة التى عرضت بها شؤون الصحافة المصرية . والحق أن المجهود الذى بذل فى عرضها غير قليل ؛ فهى حديثة العهد بالوجود ، لا يرجع تاريخها إلى أكثر من خمسين أو ستين سنة مضت . وإلى أواخر القرن الماضى كانت الصحافة المصرية ضعيفة ضعفاً ظاهراً . وصحافة اليوم لا سبيل إلى عرضها بأكثر من وضع مجموعاتها لمن شاء أن يتصفحها . لذلك عرضت نماذج من الصحف المنقرضة ، كما عرضت نماذج من الصحف الحديثة . لكن ذلك لم يُشفع بشىء من الإحصاء ، ولم ينل حظاً من التقسيم العلمى الذى تحتاج إليه المعارض .

* * *

أمام نصف دائرة أقسام الدول حدائق تتلوها نافورات المياه وبركها ، ثم الحدائق والمطاعم وأماكن اللهو مما سبق أن تكلمنا عنه . ومن هذه المجموعة كلها يتكون معرض الصحافة . وقد أثار هذا المعرض عند طائفة من علماء الألمان وأساتذتهم البحث فى الصحافة والعلوم الصحفية ، وهل تكون الصحافة علماً يدرس أو لا تكون . وللقيام بهذا البحث عقدوا فى أبنية المعرض مؤتمر الصحافة الدولى الذى اجتمع فى يوم ٨ أغسطس واختتم فى يوم ١٠ أغسطس ، والذى تناول بحث هذا الموضوع بما لا يدخل فى نطاق هذا الكتاب .

فى الطيارة من كولونيا إلى برلين

كان برنامج سفرى أن أذهب من كولونيا إلى برلين بعد انتهاء مؤتمر كولونيا لأشهد للمرة الأولى العاصمة الألمانية الكبيرة ، ولأرى مجهود هذه الأمة الممتلئة حياة ماثلا فى أم القرى الألمانية . وقد يدهش القارئ لشخص قضى فى أوربا أيام الدراسة سنوات ، وزارها بعد ذلك غير مرة . كيف لم يزر برلين من قبل ، وبرلين جديرة بكل إعجاب . وقد يجوز لى أن أعتذر بعدم معرفة اللغة الألمانية وعدم استطاعتى لذلك أن أتصل بأهلها وأدرك من أسرارها ما لاسبيل إلى إداركه لغير عارف لغة البلاد التى ينزلها . ولهذا العذر لا شك وزنه وأثره . لكن سبباً آخر — قد يضحك القارئ منه كما أضحك أنا اليوم — كان أقوى أثراً ؛ ذلك أن دراستى فى فرنسا كانت ما بين سنة ١٩٠٩ وسنة ١٩١٢ . وفى هذه السنوات كانت الخصومة بين فرنسا وألمانيا مستحرّة ، وكانت كل واحدة منهما تروج الدعاية ضد الأخرى بكل ما أوتيت من قوة . ومن بين ما كانت تذيعه فرنسا عن جارتها أن فى أخلاق أهلها غطرسة وجفاء ، وأنهم ثقال الظل غلاظ الأكباد ، وأن عسكريتهم قد جعلت منهم آلات لا تعرف شيئاً اسمه التفكير ولا الفن ولا الحرية ، وإنما يقف علمها عند أن تؤمر فتطيع .

وقد بالغ بعض الكتاب الفرنسيين فى تجسيم هذه الصورة عن ألمانيا ، حتى ليحسب الإنسان أنه معرَّض ساعة ينزل بين الألمان للقبض عليه لأتفه سبب ، وأن تساء معاملته لغير موجب . ويكفيك أن تطلع على ما كتبه جى دموباسان فى هذه الناحية ليقشعر بدنك من قسوة هؤلاء الألمان الوحوش . فكيف يتسنى لمن يدرس فى فرنسا ، ومن يعجب بالظرف والرقة فيها ، أن يغامر بنفسه فيذهب إلى بلاد الغطرسة والقسوة والتوحش ! فلى إذن العذر إن أنا لم أزر برلين ولم أر من الألمان أحداً .

وتقضت السنون بعد ذلك ، وكانت الحرب ، وبدا الإنسان فى كل قسوته وتوحشه لا فرق بين ألمانى وغير ألمانى ، وفترت فى النفس أوهام الصبا ، وتكشفت عن الحياة أستار الأمانى البراقة ، فظهر الناس جميعاً أمام البصر تصرفهم غرائزهم فتسخّر عقولهم كما تسخر خيالهم وفنهم ، وتسخر من منطقهم الذى يسمونه منطق العقل وما هو إلا منطق الغريزة

الحيوية المشتركة بين الإنسان وغير الإنسان ، تدفعهم جميعاً إلى البحث عن أسباب الطمأنينة والسعادة . فإذا كان للألمان فى هذه الأسباب رأى غير رأى الفرنسيين أو الإنجليز ، فلا تثريب عليهم فى ذلك ، سواء أكان رأيهم أدنى إلى الصواب أم أدنى إلى الخطأ .

فلنذهب إذن إلى برلين . قال صاحب : ولم لا تذهبون إليها بالطيارة وهى تقطع المسافة بين كولونيا والعاصمة فى ثلاث ساعات ، على حين تقطعها القطارات السريعة فى عشر ، وفى كل يوم بين كولونيا وبرلين طيارة يسافر الناس عليها ، والكل متفق على أن السفر بالهواء مريح أكثر من سفر القطار ومن سفر البواخر . وهى بعد تريكم مناظر الأرض فى صورة لم تروها من قبل ، على حين أنكم رأيتم صوره هذه المناظر بالقطار حتى لم يكد يبقى لكم فى شىء منها جديد . وما أحسبكم من أولئك الذين يخشون السفر الجوى لما يتوهمونه من أخطاره ، وأنتم تعلمون أنه من مأمنه يؤتى الحذِر ، وأن الخطر كمين فى كل خطوة من خطى الإنسان . فلو أنه حاول دائماً أن يحاذره لما تحرك حركة ولا خطى خطوة . . . وظل هذا الصاحب بنا يحاول إقناعنا . وأعانه فى ذلك أن جماعة ممن عرفت فى المعرض ألمانيين وغير ألمانيين سمعوا منه اقتراحه فوافقوه عليه ، وقص بعضهم أنه امتطى الهواء مرات ، وأنه يجد فيه من الراحة مالا يجده على الأرض ولا على البحار .

مع ذلك بقينا مترددين . السفر بالطيارة جميل ، وقد حدثنى كثيرون من قبل عنه ، وأخبرونى أن ليس به ما يتعب إلا دوىّ أجنحة الطيارة دوياً يصم الآذان . مع ذلك ففى ركوب الهواء مجازفة ما دامت الطيارات ما تزال معرضة للاحتراق . ولقد جاهدت بعد وصولى برلين أن أقنع جماعة ممن رأيت من المصريين أن يسافروا فى الطيارة ، فكان من عدم اقتناعهم ما سوَّغ أمامى ترددنا الأول .

على أن هذا التردد لم يطل ؛ فلقد ذهبت إلى كوك فى كولونيا ، وطلبت إليه تذكرتين للطيران يوم الاثنين الثالث عشر من أغسطس . وفى صباح ذلك اليوم شحنت ما حسبت أن الطيارة لا تتسع لغيره من متاعنا ، وإن رأيت بعد وصولى إلى المطار أنها كانت تتسع لأكثر منه . وبعد ربع ساعة من ظهر ذلك اليوم ركبنا سيارة « اللفت هانزا » الذاهبة إلى المطار ، ومعنا صاحبنا الذى أشار بركوب الطيارة . وقطعت بنا السيارة أنحاء المدينة وخرجنا إلى ظاهرها ، وبلغ محطة الطيران . وما كدنا ندخل ونلقى بأبصارنا على المطار حتى ألفينا أكثر من طيارة ذات سطح واحد . لكن الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة لم تكن قد حانت بعد .

فجلسنا فى مطعم لم نتناول فيه طعاماً ، ولكنا جعلنا نطل منه على هذه الطيارات المستعدة للطيران . وفى الساعة الواحدة أقبلت إلى المطار تجرى على عجلها طيارة ذات سطحين ، ونادى المنادى : إلى برلين .

إذن هذه هى طيارتنا ، فلنطر إليها حتى تطير بنا . وسبقتنى زوجى ، فلما لحقت بها أخبرتنى أنها سمعت أثناء مرورها شخصاً عند مؤخرة الطيارة يذكر أن بها عطباً وأنه يصلحه . فلما أردت أن أسكن من هذه الناحية روعى وروعها بأن سألتها كيف فهمت كل هذه العبارة الطويلة بالألمانية ، أخبرتنى أن الشخص كان يتكلم الفرنسية . فنحن إذن سنكون على أجنحة الهواء فى طائرة بذنبها عطب . وإذن فلله الأمر من قبل ومن بعد . ولكل أجل كتاب . فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

ولست أدرى ماذا كان يجرى إليه حديثنا عن هذا العطب لو لم تلتفت إليه جارة لنا فتخوض معها زوجى فى حديث ، فتعلم منها أنها فرنسية ، وأنها وحيدة فى سفرها . وأنها حضرت على هذه الطيارة من باريس فلم تجد فى سفرها نصباً ، بل لم تجد إلا الراحة التامة والسكينة كل السكينة ، لولا ضجة المحركات المزعجة التى لا مفر معها من أن يملأ الإنسان أذنيه قطناً ليستطيع احتمالها مع شىء من العناء . ثم قالت كى تطمئننا : ولقد نزل بنا الطيار هنا نزولا بديعاً لم نشعر معه بأى شىء . . . وجعلت تمدح هذا السفر بالطيارة ، وتذكر أنها ذاهبة بها من باريس إلى برلين ، لتمضى بالعاصمة الألمانية أسبوعاً ثم تعود بالطيارة كذلك إلى باريس . ولما كانت قد ذكرت أن هذا هو سفرها الأول فى الجو ، فقد جعلنا نسألها عما شعرت به أول ارتفاع الطيارة وأثناء مسيرها وحين هبوطها ، ونسأل عن تفاصيل أخرى لم تدر بخاطرنا قبل أن نجد أنفسنا فى هذا المضيق .

لم يدفعنى إلى كتابة كلمة « المضيق » هذه شىء من معنى الخشية أو التخوف ، فطيارتنا والطيارات الأخرى التى رأينا مضيق فعلا . فهذه الأجنحة الفسيحة تضم بينها غرفة فى صورة غلاف جسم الطائرة سواء بسواء . والغرفة التى كنا بها تتسع لعشرة أشخاص فقط ، ركب منهم ثمانية وبقى مقعدان خاليان وصادف أن كان الثمانية : أربع سيدات وأربعة رجال . وعرض الطيارة ، أو ، بعبارة أدق ، هذه الغرفة الضيقة ، تتسع لمقعدين من نوع « الفوتى » الذى يريح الجالس عليه كل الاراحة . وبين المقعدين ممر ضيق لا يكاد يتسع للشخص الواحد إلا بمشقة . ووراء المقاعد فى هذا المضيق مكان يوضع فيه المتاع إلى جانب دورة المياه . فأنت إذن ترى أننا كنا فى « مضيق » بالصورة المادية الصحيحة لهذه الكلمة . وأنى إذ

تحدثت عن المضيق لم أقصد به إلى أى معنى آخر .

وكان مقعدى فى المقدمة ، فليس بينى وبين الطيار غير حاجز ضعيف . والمقدمة تطل على ما فى الطيارة من أدوات وعُدد تلفت النظر إليها . فهذه المحركات الحديدية الضخمة على صورة المروحة الكهربية تدور فى حركة سريعة فتدور معها لوالب وزنبركات ويايات تعدّها بالعشرات ، وكلها تدق فى نظام هو بعينه نظام نبض الحياة فى الإنسان ، وهى بعينها دقات قلب المرء . وهذه الزنبركات واللوالب واليايات صغيرة إلى جانب هذا المحرك الضخم العظيم . والجناحان المزدوجان عن يميننا وعن يسارنا فسيحا السعة ، حتى لا يكاد المضيق الذى يحشر الناس بينهما تتعلق به العين أو تعنى به النفس لولا أنا جاثمون بين جدرانه المتينة .

الساعة الأولى والدقيقة الخامسة ! الموعد الذى قيل لنا إن الطيارة ستتحرك فيه ، وها هى ذى مع ذلك لم تتحرك . إذن فلا بد أن يكون العطب الذى بالمؤخرة داعياً إلى التأخر . ولكن ليكن ! فماذا عسانا نستطيع أن نقول ومعنا ستة آخرون تبدو عليهم الطمأنينة . فلننتظر . . . وها هى ذى الساعة الأولى والربع والطيارة مع ذلك لم تتحرك ! والأولى والثلث والطيارة مع ذلك لم تتحرك ! أى عطب هذا الذى اقتضى إصلاحه هذا الوقت كله ؟ . . . والآن ها هى ذى الساعة الأولى والدقيقة الخامسة والعشرون . وها هو ذا طيار يمر من بيننا ويأخذ مجلسه إلى جانب زميله ويجيب عن سؤال زميله فى لهجة استخفاف : لقد كان عطب تافه فى المؤخرة أصلحناه فى الوقت المناسب : وما يزال أمامنا خمس دقائق .

ما يزال أمامنا خمس دقائق ؟ نعم ! كذلك أجابتنا السيدة الفرنسية التى تحدثنا إليها وتحدثت إلينا . فالطيارة تدخل المطار الساعة الأولى والدقيقة الخامسة ، لكنها لا ترتفع طائرة إلا فى الساعة الأولى والنصف . ألا لو علمنا ذلك لما كان ثمة موضع لعدّنا الدقائق والثوانى لحسباننا العطب سبب التأخير .

وفى الساعة الأولى والنصف تماماً أقبل إلى ناحية الطيارة ضابط المطار ، فصفر إيذاناً لها بالسفر . وجرت الطيارة على عجلها حتى توسطت المطار عند ضابط آخر واقف إلى جانب علم مثبت فى الأرض . هنالك رأينا الأرض تبتعد عنا رويداً رويداً من غير أن نشعر ونحن فى الطيارة بأكثر من حركة الصاعد (الأسنسير) حين ارتفاعه . لكن ضيق المحشر الذى حشرنا فيه جعل أنفاس الأشخاص العشرة الذين يشغلونه تجعل منه بوتقة ؛ فخلعت معطفى فى أثناء ارتفاع الطيارة ، ثم جعلت أحدق إلى الأرض وما عليها من شجر وعمارة وهضاب وجبال تبتعد عنا رويداً رويداً . وكلما آن للطيارة أن تزداد إرتفاعاً شعرنا بها تهبط فجأة بعض

الثانية . ثم ترتفع من جديد فلا نشعر بارتفاعها ، وأشهد لقد هبطت فى شىء من السرعة فخلت قلبى يهبط ، وأحسب أن الذين كانوا يطيرون مثلنا للمرة الأولى هبطت قلوبهم كذلك معها . لكنها فى هذه المرة ارتفعت ثم ارتفعت ثم ازدادت ارتفاعاً ، حتى بلغ ما بينها وبين الأرض ألفاً وخمسمائة متر .

وفى أثناء هذا الهبوط ثم الارتفاع كنا فى شغل بحركة الطيارة عن أن ندقق فى الإحاطة بما تقع عليه أنظارنا من زجاج نوافذها . وكنا كذلك ممتلئى النفوس شعوراً بأنا لا نقدر من أمرنا على شىء ، وبأنا فى حاجة إلى عون كل القوى لتمدنا من لدنها بما يعيننا على مواجهة هذا الجديد الذى لم نعرفه قبل ساعة حشرنا فيه ، وإن كنا قد سمعنا وقرأنا عنه ما جعل من اليسير علينا أن نهرع إليه لنزداد بأمره خبراً . لهذا دعتنى زوجى أن أقرأ « آية الكرسى » ، وانطلق لسانها هى بالدعوات الحارة إلى الله رجاء كل مستعين ، وذكرت أهلنا ومن خلفنا فى مصر ، فوجهت إلى السماء من صالح الدعوات لهم ما يرتفع به القلب حين يصفو من مشاغل الحياة الدنيا . على أننا لم نستطع التفاهم على ما نقرأ وما نتلو من الدعوات إلا زمناً يسيراً ؛ فقد قوى دوىّ المحركات أثناء مسير الطيارة وارتفاعها ، حتى كان لا يسمع أحد أحداً ، ولا يستطيع جار أن يتفاهم مع جاره إلا بالكتابة .

وفيما هى فى ارتفاعها كانت تسير بنا صوب برلين . أين نحن الآن منا فى القطار ؛ نطل من نوافذه الواسعة على المزارع تارة وعلى الجبال أخرى وعلى الأنهار ثالثة نعبرها فوق الجسور المختلفة الصناعة ! ها نحن أولاء تشهد أعيننا الجبال والمزارع والأنهار والغدران والقصور والطرقات ، وكلها كأنها خطوط مستقيمة تارة ، ملتوية أخرى ، خضراء حيناً ، مغبرة حيناً آخر ، لامعة بالموج ثالثاً ! ولكنها فى هذه الأحوال جميعاً لا تزيد على خطوط رسمت على خريطة مسطحة مستوية من الأرض ، لا تختلف فى شىء عن الخريطة السطحية المستوية من الورق التى ترسم عليها الصور الطبيعية والجغرافية لهذه الكائنات التى نراها عن قرب بارزة أو غائرة ، مرتفعة أو منخفضة ، ضخمة أو ضئيلة . وكما صرنا بالعادة نعرف ما تشير إليه الألوان على الخرائط ، كذلك استطعنا أن نعرف ما تمر فرقه الطائرة فى مروقها كالسهم ، فنميز بين الجبل والسهل والبناء ، وإن كنا ننظر إليها جميعاً نظرة علو واستكبار ، فلا نرى لها من العظمة ولا من الجمال ما نراه لها ؛ إذ نمر بها ونحن صغار إلى جانبها وهى عظيمة تبهر عظمتها الأبصار ويأخذ جمالها القلوب ، ولم لا ننظر إليها كذلك ؟ ألسنا منها فى سماواتها العلى ؟ ألسنا نطل من نوافذ زجاج الطيارة فنراها صغيرة دوننا ، ونرى قممها التى

كانت شامخة متعالية وقد طأطأت هامتها لنا وكشفت عما كان مخبوءاً منها لأنظارنا ؟ فماذا بقى منها غيباً علينا حتى نجلها أو نعظمها ! والإنسان لا يجل إلا الغيب ، ولا يعظم أمامه إلا المحجب.

وهدأت النفس واطمأنت إلى مكانها بعد روعها من سلوك السبيل إلى هذه المكانة . ألم يكن هذا السبيل مجهولا أمامها ! فلتستعن إذن بالغيب وبالمجهول ما دامت قادمة على غيب ومجهول ! لتصبح ذرة فى وحدة الوجود العظيمة ، ولتفن مع غيرها من الذرّ ، ولتلتمس لها فى فنائها هذا أنساً لها من وحشة ، ومعونة على المجازفة ، وسكينة فى أحضان الاستسلام . أما وقد تسنمت الذروة وأطلت من فوق الكائنات على هذه الكائنات فما الروع ، وما الغيب ، وما الاستعانة إلا ضعف غير لائق بالنفس التى تؤمن بالعلم ، نعم ! ما دام العلم فالوجود كله للإنسان . وإذا هو لم يكن لإنسان اليوم فهو لإنسان مائة سنة أو ألف سنة أو ألوف من السنين مقبلة . أليس الوجود هو هذا الذى نحدق إليه حولنا ؟ أولسنا نكشف كل يوم منه عن جديد ؟ ففيم استحالة أن نكشف يوما من الأيام عنه كله ؟ . . .

وذهبت فى هذه التأملات وفى مثلها . لكنى شعرت بشىء يلفتنى عنها ويردنى إلى حقائق الوجود الذى حولى . ذلك هو البرد الذى جعل يشتد رويداً رويداً . أليست طيارة قد ارتفعت ألفاً وخمسمائة متر ! فهذا الهواء الذى كانت الأنفاس أدفأته قد بدا يتأثر شيئاً فشيئاً بالجو المحيط بالقفص الذى نحن فيه ، وها هو ذا الآن قد أمسى بارداً ، فأنا فى حاجة إلى معطفى أضعه على ساقى . كلا ! بل أرتديه ، فدفء ساقى لم تدفأ له أكتافى . وارتديته ثم ضممته إلىّ كأشد ما يضم الإنسان إليه رداءه فى ساعات القـرّ المرعد . وعدت إلى تفكيرى من جديد . عدت إليه إذ ليس لى إلى غيره من سبيل . فلست أستطيع أن أتحدث إلى جار لى وقد ملأت أذنىّ قطناً أتقى به دوىّ المحرك المزعج المصم . .

ولعلى كنت أجد من مجرد التأملات مندوحة لو أنه كانت تحت نظرى خريطة تفصل لى ما نمر به من بلاد وما تقع عليه العين من مناظر . أو لو كان معى منظار معظم أتبين به هذه البلاد والمناظر . لكنه لم يكن مع أحد ممن فى الطيارة جميعاً خريطة ولا منظار . وأحسب أن هذه الخرائط لم توضع بعد للمسافرين بالطيارات ؛ لأن عددهم لا يزال قليلاً ، أو لأن سرعة الطيارة تجعل التحديق إلى ما نمر به أمراً غير ميسور .

ها ساعتان مضتا وبقى لنا ساعة كاملة للهبوط فى مطار برلين . فماذا عساى أصنع ؟ أسندت رأسى إلى زجاج الغرفة وأغمضت عينى فنمت . وأحسبنى نمت هنيهة غير قصيرة ؛ فقد شعرت بجارى يوقظنى ، ورأيته يشير إلى ما تمر الطيارة فوقه ، ويكتب إلىّ على غلاف

كتاب معه : برلين . إذن وصلنا ! . . ولكن لا ! فكيف تكون هذه برلين ونحن نرى تحت أنظارنا غابات ، مبعثرة هنا وهناك ، ونرى بحيرات تلمع مياهها خلال الغابات ، ونرى كل ما عهدنا فى المروج الفسيحة وفى الأحراش الواسعة ! . صحيح أن هذه الأشجار الخضراء وتلك البحيرات التى تتخللها تحيط بها عمارات وأشباه عمارات . لكن العمارات صغيرة لبعدها عن النظر ، ولاكتظاظ ما تجاور منها ، ولتبعثرها بما تفصل الغابات والبحيرات بينها . فهل تكون العاصمة الألمانية فى هذا الجمال الذى تجلوه نظرة الطيارة منها ؟ لا بد أن يكون ذلك هو الواقع ؛ لأن الساعة أوفت على الرابعة والنصف . ولكن كيف تكون هذه برلين ! وصادف أن أشار إلىّ جارى الأمريكى بأنا ننزل عند « مجدبرج » ، أو بينها وبين برلين . ولم يَرُعْنى إلا الطيارة قد بدأت تهبط ثم تهبط . . حتى قاربت الأرض ، وحتى صرنا نستطيع أن ننزع القطن من آذاننا فلا يزعجنا دوىّ المحرك ، ولم نشعر فى أثناء هبوط الطيارة بأكثر من مثل حركة هبوط الأسنسير أيضاً . ثم جرت الطيارة بعد ذلك على عجلها فى المطار حتى أبوابه ، فوقفت وهبطنا منها فوق درج صغير .

هبطنا منها ، وجعل ركابها يهز بعضهم يد بعض حمداً لله على السلامة . وأقبل علينا حاجب المفوضية المصرية يخبرنا أن القائم بأعمال المفوضية تفضل فحضر بنفسه . وسلمنا الحاجب متاعنا ، وذهبنا جميعاً إلى الفندق ، فأوينا إليه وأنا أشد ما أكون غبطة بسفرى هذا ، ورجاءً فى تقدم المواصلات الجوية تقدماً يقرب أجزاء العالم بعضها من بعض ، ويجعل العالم كرة صغيرة فى قبضة الإنسان .

فى برلين

صدقت نظرة الطائر إلى برلين ؛ فهى غابات وأحراش وبحيرات تغطى من المساحة القائمة فوقها مبانيها أضعاف ما تقوم عليه المبانى . نزلنا من المطار إلى فندق « إدن » بالأحياء الجديدة من المدينة ، فتخطت السيارة بنا إليه شوارع تحيط بها من الجانبين ، أو من أحدهما ، غابات تذهب مع البصر حتى لا يرى شيئاً غير أشجارها ، ثم وقفت عند باب الفندق ، فإذا إزاءه غابة هائلة أعادت إلى الذهن غاب بولونيا بجوار باريس . ونزلت بعد الغروب مع صديق رقيق يعرف المدينة العظيمة حق المعرفة فاخترق بى طرقاً أخرى حتى وصلنا إلى بحيرة جلسنا فى متنزه على شاطئها . وفى الأيام التى قضينا ببرلين لم يكن يوم ينقضى دون أن نخترق غاب « التيرجارتن » أو أن نذهب إلى إحدى الغابات الكثيرة الأخرى المنثورة ببحيراتها خلال العاصمة الألمانية الهائلة وشوارع المدينة المحاطة على جانبيها بالمنازل والمتاجر أكثرها فسيح مغروسة وسطه الأشجار ، ويجرى الترام فيه فوق الحشيش الأخضر ، حتى لتظنك حيثما كنت فى حدائق ناضرة . والألمان مزهوون أشد الزهو بنظام مدينتهم هذا ، ويعتبرون الغابات المنثورة خلالها ، والتيرجارتن أكبرها وأفسحها ، بمثابة الرئة من برلين تنفس عنها ولا تضطر الناس إلى الخروج منها ابتغاء هواء نقى وجو صاف ما دام هواء المدينة دائم التجدد بمروره بهذه الرئة التى تفرز فاسده وترد إلى المدينة النقى الصالح . وهم أشد زهواً بشوارع مدينتهم وبنظافتها وبدقة نظام المرور فيها . والحق أن شوارع برلين ليس كمثلها سعة ونظافة فى باريس أو فى لندن ، حتى لكانت زوجى تشير مازحة إلىّ أن يجب ألا ألقى بقية سيجارتى بها لتظل فى نظافتها وفى لمعانها . فأما المرور فمنظم تنظيماً أوتوماتيكياً بالأنوار الحمراء والخضراء والصفراء ، تشير بالمرور أو بالانتظار ، فتجيب الأوتوبيلات إشارتها فى رضا واطمئنان . أخذ ذلك كله نظرى ، فجعلت أسائل نفسى كم يقتضى ذلك كله من العناية به لتبقى برلين دائماً كما أراها ؟ وتردد هذا السؤال بخاطرى غير مرة ، فألقيت به على أحد شبابنا المقيمين هنالك ، فذكر لى أن ميزانية بلدية العاصمة وحدها خمسون مليوناً من الجنيهات ، أى ما يكاد يعادل الضعفين لميزانية الدولة المصرية كلها .

ويخيل إلىَّ أن النظافة بعض الغرائز الألمانية . أقمنا بفندق « إدن » أياماً انتقلنا بعدها

إلى فندق « الاسبلاناد » ؛ فكان مما لاحظناه فيهما جميعاً أن جماعة من الخدم لا يفتئون ، منذ الصباح الباكر إلى المساء المتأخر ، ينظفون الأراضى والجدران والنوافذ والأبواب والسقوف ، وكأنهم كلما فرغوا عادوا ينظفون من جديد ، مستعينين بكل ما هدى إليه العلم وبكل ما تعاونهم به الكهرباء . وما أشك فى أن سائر فنادق برلين وكل منازلها تلقى من العناية بنظافتها كل ماتدفع إليه هذه الغريزة على نحو ما رأينا فى الفندقين اللذين نزلنا بهما ، وعلى نحو ما هو باد بصورة تلفت النظر فى كل شوارع المدينة وطرقاتها .

على أن ما يسّر لبرلين سعة شوارعها أن برلين مدينة حديثة ، لا يرجع تاريخ أكثر الأحياء فيها إلى مائة سنة ، ولا يرجع تاريخ أبهى أحيائها إلى أكثر من خمسين سنة ، وحداثتها هى بعض ما يطوّع للناس فى باريس وفى غير باريس أن يوجهوا لها ما يوجهون من نقد . فهى عندهم كالرجل المحدث الثروة ، كان بالأمس فى كوخ أو فى بيت صغير ، فلما أنعمت المصادفة عليه بما أنعمت من ثروة ، تبدى فى وجاهة المحدثين ووقاحتهم ، وابتنى لنفسه قصراً على أحدث طراز وجهزه بأحدث أسباب النعمة . فأما العريقون فى حسبهم ونسبهم فيقيمون فى قصور آبائهم وأجدادهم . قد لا تبدو هذه القصور فى وجاهة دور المحدثين ولا فى ترفها ، ولكن لها من حديث التاريخ ما تعتز به ؛ إذ فى كل غرفة من غرفها وفى كل بهو من أبهائها من الذكريات ما يتضاءل أمامه هذا الجمال الحديث طهيه . ثم إن مقاومة هذه القصور القديمة لصروف الزمن قد جعلتها بمأمن من زعازع الحياة ، على حين ما تزال دور المحدثين عرضة لأعنف الهزات كيما تستقر . فإذا كانت شوارع برلين وغاباتها على ما وصفت ، فليس فى برلين ما يحدث حديث باريس وحديث روما وحديث لندن ، وليس فيها من صور الفن ما محصه الزمن فى بوتقته القاسية ، فسما على الزمن وارتقى إلى مكان الخلود .

لست أريد أن أقف عند هذا النقد وبرلين أمامى فى جلال جمالها وبهر عظمتها تحدث حديث الروعة والبهاء ، ولكنى أعترف بأن بى ضعفاً أمام القديم ، يجعلنى أقف بين يديه خاشعاً مقدساً . قد يكون هذا الضعف فى نفسى المصرية راجعاً إلى تقديسى آثار الفراعنة الأقدمين . وقد يكون راجعاً إلى اعتقادى بأن ما يتركه الزمن من ندوب فيما يعجز الزمن عن دك صرحه أبلغ حديثاً من كل فن حديث . على أن هذا الضعف لم يحل بينى وبين الإعجاب ببرلين والاستمتاع بما فيها من جمال وعظمة تتجلى فيما للألمانيين من ميل خاص للضخم وللعظيم ، حتى أن أهل ألمانيا رجالاً ونساء أضخم من غيرهم من أهل أمم الشمال ،

كما تتجلى فى دأبهم وتعمقهم بما يجعلهم يميلون فى طريقة بحثهم وتفكيرهم إلى التقصى لأبعد الحدود ، كى يظهر بحثهم عظيماً وتفكيرهم ضخماً ، كيما يظهر كل أثر لبحثهم فى العلم أو فى الصناعة ضخماً عظيماً . وكان أول ما لفت نظرى من مظاهر عظمتهم أن الشهوة لم تخرج بهم ما خرجت بالفرنسيين أثناء الحرب إلى صغائر تأباها العظمة . من ذلك أن الفرنسيين ألغوا من حياتهم ماله أيسر اتصال بألمانيا ، فاستبدلوا بما كان من أسماء الشوارع متحدثاً عن الإمبراطورية أسماء فرنسية أو متصلة بالحلفاء . أما فى برلين فلا يزال الميدان الذى يقابل ميدان الكونكورد يدعى ، كما كان يدعى قبل الحرب ، ميدان باريس . وكما بقى لهذا الميدان اسمه فقد بقيت سائر الأسماء لم تغير ، ولو بعض ما عفت عليه عداوة الحرب . وميدان باريس يتصل من ناحية بالتيرجارتن ، ويفصل بينه وبينها عقد كأنه قوس النصر يسمى « برج براندبور » ، ويتصل به من ناحيته الأخرى طريق « أنتردن لندن » أى طريق الزيزفون ، منافساً طريق الشانزليزيه بباريس ، ممتداً حتى يبلغ غايته عند تمثال القيصر فرانس جوزيف ، وتقوم على جانبيه مبان غاية فى الفخامة ، منها مبانى الجامعة ، وبناء دار الأوبرا والمكتبة الملكية والترسانة . ويتخطى السائر أحد فروع الأسبرى إلى « اللستجارتن » ، وهى حديقة قامت خلالها تماثيل شتى كلها للنصر والغلب ، وكلها تدخل فى روعك سجايا ألمانيا الحربية متجلية ناطقة ، فى التماثيل نفسها أو فى الصور البارزة التى نقشت على قواعدها . وأشد هذه التماثيل أخذاً للنظر تمثال فردريك غليوم الثالث . على أنك إذ تقف معجباً بالحديقة وتماثيلها يأخذ نظرك بناءان غاية فى العظمة والفخامة : أحدهما القصر الملكى ، والثانى الكنيسة « الدوم » . ولم نزر نحن القصر ، ولكنا زرنا الكنيسة . هى كنيسة جميلة ، لكنها حديثة بنيت فى هذا القرن المتم العشرين ، إذ تمت عمارتها فى سنة ١٩٠٥ ، وهى على جمالها لا تبعث إلى النفس شيئاً من معنى الرهبة التى تبعثها إليها كنائس كثيرة مما زرنا . وبحسبى أن أذكر أن هذه المعانى الدينية التى شعرنا بها العام الماضى فى كنيسة ميلانو والتى شعرنا بها منذ أيام فى مدينة كولونيا ، لا تجد أى مدخل إلى النفس فى كتدرائية برلين . ما بالك بما تبعثه إلى النفس كنيسة نوتردام فى باريس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما ! دخلناها فإذا هى أقرب إلى أن تكون بهو محاضرات منها إلى أن تكون مكان عبادة . بل إن بهو السوربون الكبير لأكثر منها مهابة ورهبة . وعلى جدرانها وفى بعض مقاصيرها العليا صور لا تعبر عن معنى دينى رهيب . وصعدنا إلى طابقها الأعلى ، فإذا به تزين جدرانه صور جميلة تجعل المكان متحفاً أكثر منه كنيسة . وما أدرى لعل جماعة

البروتستانت يريدون لبيوت الله فى مذهبهم ألا تبلغ هيبتها من النفس موضع الرهبة ، حتى تكون عبادة المرء ربه عبادة جمال لا عبادة سر قوىٍّ مخوف . أم لعل الأمر لا يتصل بالبروتستانتية ، وإنما يتصل بمذهب جديد فى فن العمارة . على أنه أياً كان السبب فى هذه البدعة فى المعابد فإنى أرانى أشد ميلا للهيبة فى العبادة ولو كانت عبادة الجمال .

يتصل طريق الزيزفون « الانتردن لندن » بأكثر الأحياء التجارية فى برلين نشاطاً وحركة . فهو يقطع شوارع « وهلم شتراس » « وفردريك شتراس » ، ويوازى « ليبزج شتراس » ، وكلها شوارع تنبض بحركة برلين فى التجارة نبضاً قوياً . ويمر هذا الشارع الأخير ، كما تمر شوارع غيره ، بمتاجر فرتيم التى تزدهى برلين بعظمتها وضخامتها وتضعها مكاناً علياً فوق اللوفر والبون مارشيه فى باريس ، بل فوق سلفردج وهارودز فى لندن . وأشهد أن فرتيم عظيم حقاً ؛ ففيه كل صنوف التجارة من مصرف إلى محل الفاكهة والخضر وما بين ذلك . لكنى أشهد كذلك أنى شعرت بفرق بين فرتيم ومتاجر باريس الكبرى ، كالذى شعرت به بين طريق أنتردن لندن والشانزليزيه . فكلا الطريقين جميل وعظيم ، لكن طريق باريس — على ما وصفت فى الكتاب الأول من هذا المؤلف — مجموعة فيها اتساق عجيب ، حتى لكأنما لوحظ فى كل بناء شيد فيه أنه يجرى مجرى الاتساق مع سائر الأبنية . فأما طريق برلين فينقصه هذا الاتساق ، وترى فيه من صور النبوّ عن فن الجمال ما يفجأ نظرك مع إعجابك بما هو عليه من عظمة ونظافة . كذلك ينقص الاتساق والجمال الفنى متاجر فرتيم على عظمتها وضخامتها . وهو ينقص الكثير مما ترى فى برلين لأن العظمة والضخامة مقدمة عند الألمانيين على الاتساق وجمال التجاوب .

يعاودك الشعور بهذا المعنى إذ تتخطى الطريق الذى يخترق التيرجارتن والذى أقيمت على جانبيه تماثيل ملوك ألمانيا فى عصورها المختلفة بما يجعله حقيقاً بأن يدعى الطريق الملكى . كل واحد من هذه التماثيل جميل ؛ والطريق فى اختراقه الغابة جميل . لكنا نحن الذين إعتدنا ذوق الجمال على ما غرسته فى نفوسنا الثقافة ، كنا نشعر فى هذا الطريق بنقص فى الاتساق ، ولكنه كان مع ذلك ومع قربه من فندق « الاسبلاناد » يجعلنا نهرع إليه المرة بعد المرة لنستريح إلى جماله . ولشد ماذكرت خلال المرات التى اخترقناه فيها نصف دائرة الملكات فى حديقة اللكسمبور بباريس ، وما فيها من معان ، وما لجمال تجاوبها واتساقها من سحر يحببها إلى النفس . وبرلمان برلين القريب من هذا الطريق الملكى ، فيه كذلك من الفخامة والضخامة أكثر مما فيه من حسن التجاوب والاتساق ، لكن ذلك لا يعنى

نقص الجمال فى هذه التماثيل والمبانى والطرق ، وإنما يعنى أن الألمان أكثر تقديراً للفخامة منهم للاتساق فى الجمال . وهذا ما يؤدى بهم إلى تفضيل موسيقى فاجنر الضخمة على غيرها من أنغام الموسيقى الإيطالية والفرنسية الميالة دائماً إلى الاتساق والانسجام .

على أن الضخامة التى امتازت بها الميول الألمانية لم تبد فى أوضح مظاهرها ما بدت لنا فى مصانع الكهرباء لشركة زيمن . ومصانع الكهرباء هذه تقع بمدينة زيمن على نحو الساعة من أهلها ، وصعدنا إلى إدارتها مع مهندس الشركة فى مصعد (أسنسير) ضخم يديره مزارع خضراء ذات بهجة تنساب خلالها أحياناً غدران صغيرة وقد زرناها يوماً بدعوة رقيقة من أهلها ، وصعدنا إلى إدارتها مع مهندس الشركة فى مصعد (أسنسير) ضخم يديره عامل مبتور الذراع من أيام الحرب . وقوانين ما بعد الحرب فى ألمانيا تقتضى هذه المصانع الكبرى أن تستخدم نسبة معينة ممن أصابتهم الحرب بعاهة من العاهات ؛ لتعلم الأمة أن ما يصيب أبناءها فى سبيلها لن يحول بينهم وبين الكسب وعول من تلقى عليهم المقادير عولهم من أهل وولد . وبعد أن قابلنا مديرى المصنع ذهبنا فى أوتوبيل جرى بنا نحو ربع الساعة إلى مصنع الأسلاك الكهربية . أية ضخامة هذه ! لقد قابلنا شيخ ألمانى جاوز السبعين طويل القامة جم النشاط ، طاف معنا فى هذه المصانع التى تتسع لسبعة آلاف من العمال ساعات متوالية ، كان نشاطه فى ختامها كنشاطه فى بدئها . وكان أول ما اتجه بنا نحوه الماكينة المحركة لجميع الآلات التى تدير مصنعه ، والتى قيل عنها إنها أقوى محرك من نوعها فى أوربا كلها . ثم انحدرنا إلى مصانع الأسلاك ، فإذا الضخامة هى الضخامة ، وإذا العمال والعاملات ينقلون الأسلاك إلى الماكينات فتخرج منها ، فى دقائق ، مستوية صالحة ، ثم تلتف على عجل من الخشب ينقلها إلى ماكينات أخرى تكسوها ورقاً ، ثم إلى ماكينات ثالثة تكسو الورق قاراً ، ثم ماكينات تكسو القار كاوتشوكاً ، ثم تلتف الأسلاك كلها معاً بالعدد المطلوب ، وتحاط بأنابيب من الزنك تحميها حين تلقى فى الماء لنقل أخبار العالم التلغرافية والتليفونية فى أنحاء المعمورة . وكضخامة مصنع الأسلاك مصنع الأمشاط وما إليها مما يصنع من الكاوتشوك ممزوجاً بمسحوق الفضة . فأما مصانع مولدات الكهرباء من مساقط المياه فأشد من ذلك ضخامة بكثير . وما ترى فى مصانع زيمن من ضخامة تراه فى مطابع أولشتين التى ترتفع اثنى عشر طابقاً ، كلها ماكينات ومطابع تخرج مئات الصحف والمجلات فى كل يوم .

على أنك إذ تزور هذه المصانع وتلاحظ هذه الضخامة ترى نفسك أمام مظهر بالغ غاية الروعة ، لا فى اشتراك الرجال والنساء فى العمل على قاعدة المساواة فى المجهود

والإنتاج ، ولكن فى عناية هذه المصانع بطمأنينة العمال والارتقاء بعيشهم ليكون عيشاً إنسانياً صحيحاً إلى حدود تستريح لها النفس التى تؤمن بالديمقراطية غاية الاستراحة . تناولنا طعام الغداء مع مديرى مصنع زيمن ، فعلمنا أن الطعام الذى تناولناه هو الطعام الذى يتناوله العمال جميعاً تطهوه لهم الكهرباء . وأرونا فى أولشتين حمامات العمال وأماكن غدائهم ، فإذا الحمامات كأفخم ما تعرف الطبقات الراقية ، وإذا الغداء صحى جيد . وبمدينة زيمن مساكن صحية أمامها حدائق يأوى إليها العمال الذين يشتغلون فى المصانع . ولا عجب فى ذلك كله والحركة الاشتراكية فى ألمانيا حركة قديمة قوامها الديمقراطية الصحيحة التى تأنف التحكم البلشفى كما تأبى الاستبداد الفردى . وهذه النعمة التى توفرها المصانع الكبرى لعمالها هى خير كفيل بتثبيت أقدام الحرية وإقامة أسس السعادة الإنسانية .

هذا التعاون بين المال والعمل هو الذى يجعل للحياة جمالا لا سبيل إليه حين يتنافسان ، ويطوِّع للناس جميعاً ذوق هذا الجمال ، بل النهل منه أحراراً سعداء . والحق أن فى برلين موارد لهذا النهل شتى يرودها الناس من مختلف الطبقات . كانت الأوبرا الكبرى معطلة ، فذهبنا إلى أوبرا البلدية لعلها فى حكم الأوبرا كوميك بباريس . وهناك سمعنا موسيقى وغناء أنسيانا الضخامة والعظم ، وأعادا إلى أنفسنا من معانى الاتساق وجمال التجاوب ما أشجانا وأطربنا . ثم مثلت أوبرا صامتة لا غناء فيها ، لكن تهيئة مسرحها جعلتنا نحس كأنا فى عالم من الملائكة والجن تطير أشخاصه إلى سماوات نارية الحمرة حيناً ، بديعة الخضرة حيناً آخر ، تسعدها موسيقى هى الجمال كل الجمال . وذهبنا يوماً إلى « الكولزيم » ، فإذا به يجمع بين الضخامة والجمال فى عمارته ، وإذا المناظر المختلفة التى تعرض فيه تفوق بكثير ما يعرض من مثله بباريس فى مسارح الأولمبيا وأشباهها ، وإن لم يكن فيه شىء مما فى الفولى برجير والمولن روج . وأراد أصدقاؤنا الترويح عنا ليلة ، فذهبوا بنا إلى ملهى من نوع فريد فى بابه . على كل مائدة من موائده تليفون ، ولكل مائدة رقم . فإذا أردت التحدث إلى أى شخص على أية مائدة طلبت رقمه فتحدثت إليه وسألته : أيرغب فى الرقص أم لا يرغب ؟ ثم تابعت الحديث ما شئت وما دام محدثك على استعداد لمتابعته . هذه موارد مرح قلَّ فى غير برلين نظيرها . أما ماله نظائر فى سائر المدن فببرلين منه مالا يعد ولا يحصى ، وإن يكن أكثره دون ما بباريس بهاء وروعة .

على أن ما ببرلين من صور الجمال وما يتخللها من غابات وبحيرات يدعوك إلى أن ترى مجاورات برلين ، وإلى أن تزور ضواحيها ، وإلى أن تزور بوتسدام بنوع خاص .

فى بوتسدام قصور ثلاثة ملكية ؛ منها قصر فردريك الأكبر ، وقصر سان سوسى وحديقته ، وفيها الطاحون التاريخية التى أراد الإمبراطور ضمها لقصره ، فأبى صاحبها وأنصفه القضاء من الإمبراطور بحكم سجَّل للعدل فى ألمانيا هذه الكلمة المشهورة : « إن فى برلين قضاة » ، وسجل للإمبراطور احترام العدل باستبقائه الطاحون بإذن صاحبها أثراً قومياً ناطقاً بقداسة العدالة وسموها فوق كل اعتبار وفوق كل مقام . ذهبنا إليها نشق طريقاً تحيط به سهول ممرعة الخضرة المموهة بالزهر مختلفاً ألوانه ، وتتخطى بحيرات وغابات حتى دخلناها ، فذهبنا إلى قصر بوتسدام ، ومررنا فيه بغرف فردريك الأكبر ، ثم زرنا حديقة « سان سوسى » ، وتناولنا طعام الغداء فى مطعم يطل على نهر الهافل . ومع أن الإمبراطور غليوم كان يقيم فى بوتسدام كما كان الإمبراطور فرنسوا جوزيف يقيم فى شونبرن ، فإننا لم نشعر هنا بمثل ما شعرنا به العام الماضى حين زرنا ڤينا – لم نشعر بما رزأت به الحرب ألمانيا ، ولا شعرنا بأن أهل هذه القصور قد فروا منها ولما يضع الشعب ، مالكها الجديد ، يده عليها . كلا ! بل شعرنا فى ألمانيا بأن لهزيمتها عظمة لعلها أروع مما شعرنا به للنصر من عظمة فى كثير من الدول المنتصرة . شعرنا فيها بقوة وشباب ومضاء عزيمة للعمل بما فوق طاقة الإنسان ، للتغلب على ما أصابها ، وللسمو بنفسها فوق همومها . ولئن بدت على الوجوه سحابة كآبة وهمٍّ كلما ذكر الألمان الحرب وانتصار الحلفاء فيها وتجريدهم ألمانيا العظمى من ممتلكاتها فإن القلوب الفتية الكبيرة التى تحتل ما بين جنبى كل ألمانى تنبض فى اللحظة نفسها بمعانى الإخلاص المتقد لهذا الوطن الذى يجب أن يسمو إلى مثل ما كان له قبل الحرب من مكانة ، وبروح التضحية أكبر التضحية فى سبيل درك هذه الغاية العليا . وهذه العزيمة هى التى دعت الحلفاء إلى أن يروا سلام العالم متصلا بسلام ألمانيا ، وإلى أن يروا ضرورة وجود ألمانيا معهم فى عصبة الأمم ، وجلائهم عن أرضها ، واعترافهم لها بسمو مكانتها وعظيم مجهودها .

وآن لنا أن نغادر برلين قاصدين « بادجاشتين » ، فأقلَّنا قطار سافر فى الساعة العاشرة مساء إلى مونيخ حيث قضينا أربعاً وعشرين ساعة سافرنا بعدها إلى التيرول البديع نخترق جباله وأوديته حتى نزلنا بادجاشتين .

ميونيخ – بادجاشتين – باريس – مصر

نزلنا ميونيخ وفى ذاكرتى منها أنها بلد البيرة . ولم تكذبنى ذاكرتى ، فقد أوينا بمتاعنا إلى الفندق ، وتناولنا فيه طعام الإفطار ، ثم نزلنا نسير على هدى الدليل . فلم نسر غير بعيد حتى كنا فى أحد شوارعها الكبرى وبه ستة مصانع كبرى للبيرة أو أكثر من ستة . فإذا على هذه المصانع منذ الساعة الحادية عشرة من الصباح إقبال ، وإذا الناس ينتظرون تناول طعامهم بها يقدم لهم منه « البفتيك » الضخم والبطاطس الجم . لكن هذه الصورة المرتسمة فى الذاكرة بسبب ما لمونيخ فى صناعة البيرة من شهرة ، ما تلبث أن تتفانى كلما ازداد الإنسان تطوافاً فى نواحى المدينة المختلفة ، فرآها مدينة قديمة لها ما للمدن القديمة من جلال ، ورأى فيها من آيات الفن فى مختلف الصناعات ، ومن صور الجمال فى التماثيل الكثيرة المنثورة فى ميادينها ، ما يشعرك بأنها جديرة بأن تقضى فيها أياماً بدل أن تقضى فيها يوماً واحداً . دخلنا إحدى كنائسها ، لما اعتدنا أن نراه فى الكنائس من جمال العمارة ، ولما تدفعه إلى النفس من معنى مهوب ، فألفيناها إلا تكن فى شىء من عظمة « الدوم » ببرلين فهى أشد منها مهابة وجلالا . ووقفنا فى أكثر من ميدان فيها ، فأعجبنا ما فيها جميعاً من فساقى وتماثيل وخضرة زاهية . ثم خرجنا إلى ظاهرها قبيل مغيب الشمس ، فإذا بنا فى غابة جميلة توسطتها بحيرة ، فجلسنا إليها نستمع إلى الموسيقى عندها . وذهبنا فى المساء إلى بهو فيه طعام وشراب وطرب وغناء . وغادرناها صبح الغد إلى بادجاشتين بالتيرول النمسوى وفى النفس من ألمانيا إكبار لعزيمتها وأسف على ما أصابها . وقد عاودنا هذا الشعور بعد عام من ذلك اليوم حين كنا بلندن فى « الكورنر هاوس » وقد جلس إلى جانبنا جماعة من السيدات والرجال لا تقل سن أحدهم عن الخمسين . وكانوا يتناولون طعام الغداء ، إذ دقت الموسيقى بلحن وقف له مئات ممن فى البهو جميعاً وعلى وجوههم آثار الغبطة . أما هم فاضطربت أيديهم وسقطت الشوك والسكاكين منهم وانهلت العبرات من عيونهم وحاروا هنيهة بين الوقوف والجلوس ، ثم وقفوا ودمعهم مدرار ووجوههم محتقنة . فلما تم اللحن وجلس الناس جلسوا ، وأخرج كل منديله يكفكف به واكف دمعه ويمسح به أنفه ، وإن بقيت صدورهم مضطربة تهتز بالفجيعة والأسى . ذلك بأنهم ألمان ، وأن اللحن

الذى سمعوا لحن نصر الحلفاء على ألمانيا . فهو ما كاد يبدأ حتى تحركت فى نفوسهم العزة المهيضة والعظمة المنهدة ، فلم يستطيعوا كظم ما فى نفوسهم ، وعجزت عزائمهم عن التغلب على عواطفهم ، واندفعت أنا معهم فلم أطق فى تأثرى بجلال هذا المظهر العظيم حبس عبرة أشارك بها المخلصين لوطنهم فى سمو إخلاصهم له وتقديسهم إياه . وما يزال هذا الشعور يعاودنى ، وما أظن أن الأيام قديرة على أن تقضى عليه فى نفسى .

من التجوز أن تسمى بادجاشتين قرية ؛ فهى ، بعبارة أدق ، مصح بادجاشتين . فليس بها منازل لأهلها ، وإنما كلها فنادق ومتاجر ، وما بها من منازل فيؤجره ذووه للنازلين بها للاستشفاء ؛ ذلك بأن من يصح أن يسموا أهلها لا يقيمون بها إلا فى فصل السياحة . فإذا جاء الشتاء بثلجه وزمهريره تركوها وهبطوا الوادى إلى هفجاشتين التى تسكن طوال السنة . فنـادق بادجاشتين رشيق أكثرها ، وقـد جهزت كلها فى الطابق الأسفل منها بحمامات للاستشفاء ؛ لأنه يقال إن فى مياهها راديوما . وبالمصح على مقربة من المحطة كرسال تصدح الموسيقى فيه كل يوم صباحاً ومساء . وبه كذلك بعض مقاه وأندية يختلف المستشفون إليها . على أن المقام بالمصح يوماً أو يومين يورث النفس الملل ، ويدفع الإنسان إلى التخلص منه بالانطلاق فيما يحيط ببادجاشتين من غابات قائمة على السفوح المحيطة بها ، وكلها فتنة باهرة ببساطتها وطيب هوائها وانسياب المياه فى الأخاديد خلالها . وفى هذا الجو الحر الطليق ترتفع نفس الإنسان إلى أسمى مكان من تقديس الحرية وعبادة الجمال ، ومن السرور الجم بالاشتراك المطلق مع الطبيعة البديعة فى عظمتها وإبداعها . وقد نظمت الطرق التى يسير المصطافون فيها تنظيماً يزيد فى متاعهم بالجمال حولهم ، ويدعوهم إلى الشعور العميق بمتاعهم . على أنك لا تكون أقل سروراً إذا أنت ضللت الطريق فانطلقت خلال الغابات على غير هدى ، حتى تهديك المصادفة طريقك . وإنى لأذكر يوماً كنت فيه أنا وزوجى واثنان من المصريين وسيدة نمسوية نقصد مقهى يبعد عن بادجشتين نحو نصف الساعة ، فاخترنا طريقاً غير طريقه الذى اعتدنا ، وسرنا فيه فضللنا وجعلنا نهبط سفوحاً ونصعد أخرى ، والجهد ينال منا والطريق لا يستبين أمامنا ، حتى قضينا أكثر من ساعة قبل أن نهتدى ، ثم كنا بهذا الضلال كلنا السرور ، وكنا نضحك بنفس راضية وقلب مطمئن ساعة بلغنا المقهى وجلسنا نتصبب عرقاً ، وكلنا يحاول أن يفر من تبعة هذا الضلال .

على أن الفتنة الباهرة فى مجاورات بادجشتاين تذبل وتنسى إذا ذهب الإنسان يخترق

بالأوتوبيل أو الأوتوبيس جبال التيرول . هنا يحار الإنسان أيهما أروع : أوبرلانـد سويسرا أم تيرول النمسا . ولقد قضينا يوماً نخترق هذه الجبال ، وهأنذا أكتب بعد مضى ثلاث سنوات إلا أشهراً وما يزال قلبي تهزه المناظر العظيمة الرائع سحرها . انطلقت بنا سيارة الأتوبيس فى نحو الساعة العاشرة ، وراحت تقطع سهولاً وأودية ترى سلاسل الجبال بعيدة عند آفاقها ، حتى وصلنا بحيرة زى (زيلمسى) تقع على شاطئها قرية ظريفة هى إحدى مصايف التيرول . وبعد فترة قضيناها بها عاودت سيارة الأوتوبيس انطلاقها صاعدة سفح الجبل ، حتى وقفت بنا عند صاعد شمتنهوهن . صاعد من نوع غير كل ما رأينا من قبل ؛ فهو ليس بالفنكيلير يجرى القطار على شريطين بينهما شريط مسنن يعاونه على الصعود وعلى الهبوط . وهو ليس من نوع صاعد الهـاردركلم يجرى على شريط معلق فوق سارية وتجذبه الجنازير . بل هو صندوق معلق فى جنزير ، معرض إذا انقطع الجنزير لأن يهوى ويتحطم على الصخور . وركبنا هذا الصندوق وجذبه الجنزير حتى كنا عند قمة الجبل ، وفى فندق فوق القمة تناولنا طعامنا ، وطفنا نتمتع الطرف من فوق الجبل بما حولنا . ولم يكن ما حولنا غير جبال تغطى بعض قممها ثلوج قليلة أذاب الصيف سائرها . فلما آن للصندوق أن يهوى بنا معلقاً فى جنزيره ، هبطنا وعدنا إلى أوتوبيسنا مسرورين بما رأينا . لكنها ما كادت تنطلق بنا بعض الساعة حتى نسينا كل ما رأينا ، وحتى ابتلعتنا جبال سالزبرج وعظمة طبيعة التيرول الرهيبة المجدبة ، وحتى شعرنا بأوتوبيسنا وبأنفسنا بعوضة على قرن ثور ، بل دون البعوضة بمئات المرات كماً ، وأقل من البعوضة شعوراً بوجودنا فى هذه العزلة المهوبة بين الجبال الشاهقة والمنحدرات المخيفة . والعربة تجهد نفسها فى تسلق السفح وفى متابعة التسلق ، فلا تزداد الجبال أمامنا إلا ارتفاعاً . والتوى الطريق أمامنا وانطبقت شواهق القمم من حولنا ، فحبستنا فى مضيق تنحنى أمام رهبته رهبة جبال البسفور وبوابات الحديد . وآن للعربة أن تستدير فتنحدر فتقطع طريقاً للسكة الحديدية يجتاز خلال أنفاق بين جبلين ، هبطنا من فوق أحدهما لنتسنم غارب الآخر ، ولتجرى فوق النفق ، ثم لترتفع أمتاراً وعشرات الأمتار فوقه ليزج بنا من جديد بين جبلين ، فتتلوى على سفوح أقل من سفوح الجبال الأولى جدباً وأكثر منها ابتساماً ، وإن لم تكن أقل منها رهبة . ووقفت العربة بنا فجأة بين هذه الجبال ، وأشير إلينا بالنزول منها وبأنها ستنتظر فى الجانب الآخر من مساقط كسل (كسلفال) غاية مسيرتنا ، وخاتمة مطافنا ، وتاج ما رأينا من جمال طول يومنا . ودخلنا واجتزنا هذه المساقط من جانب إلى جانب . ماذا أقول وبأى ألفاظ

أعبر عن مشاعرى وعن إحساسى ! وكيف أردد الصيحات التى تنفسَّ عنها صدرى وهتف بها فؤادى وقلبى لهذا السحر البارع والفتنة الساحرة ! ليست كسلفال مساقط كمساقط الرين ، وكان الأجدر بها أن تدعى حلوقاً . وهى أفخم مائة مرة من حلوق سرفوز ، وأبهى وإن لم تكن أعظم من حلوق ديوزا ، كان الجانب الذى دخلنا منه غاية انحدار المساقط ، فكانت روعة الانحدار عنده على أيسرها . لكن دويَّ المياه لفتنا إلى متابعة انحدارها ، فإذا هى تتلوى ثم تتلوى . وإذا نحن فوقها حيناً وإلى جانبها حيناً آخر . على الصخرة ، وعلى درج من الخشب أو من الحديد أخرى . والدوىُّ يزداد والحلوق تغص بمياهها ، ونحن مأخوذون بهذه الروعة الحبيسة بين الجبال نسينا فيها أنفسنا ونسينا تفكيرنا وملأ الدوىُّ والماء والرشاش كل وجودنا ، ففنينا فى هذه القطعة من الكون ، وصار وجودنا كله يدوى بالإعجاب والطرب دوياً يندفع فى آهات من المسرة والانشراح حيناً ، ومن البهر والروعة حيناً ، ومن التقديس والإجلال حيناً ، ومن الإسلام والإذعان لهذه القوة الكونية العظمى ننسى عظمتها ما حبسنا أنفسنا بين الجدران فإذا اندمجنا فيها وأصبحنا بعضها ، عظمنا بها وانطوى فى نفوسنا العالم الأكبر بانطوائنا فيها ، وصرنا لها ومنها ، كما صارت لنا ومنا .

وتدرجنا الحلوق ثم تدرجناها ، حتى فجأتنا عند أعلاها فجوة عميقة يهبط الماء إليها ولا ندرى إلى أين يتسرب منها . لعل له تحت الجبال أنفاقاً يتسرب فيها عالم من الجن كما نطرب نحن للمسير وهذه الحلوق والمساقط التى شهدت . وإلى هذه الفجوة يهبط الإنسان بدرج وضعته يد الصناعة لتزيد الناس سحراً بجمال الطبيعة . وهبطنا فإذا كل ما حولنا يزيدنا غبطة وسروراً ، وإذا نحن نصعد بعد ذلك لنتناول الشاى فى بيت صغير قام إلى جانب هذه الحلوق المساقط ، لتعود بنا العربة بعد ذلك أدراجها إلى بادجاشتين ونحن فى ذهول مأخوذون بما رأينا ، حريصون على أن ننهل أثناء مقامنا بالتيرول أكبر حظ من جماله .

لكنا لم نقم بعد ذلك ببادجاشتين إلا يومين غادرناها بعدهما قاصدين باريس . وبلغناها بعد سفر ست وعشرين ساعة وشوقنا إليها على أشده ، ونعمنا فيها بما لا تشبع النفس من النهل منه والنعمة به . على أننا صدمنا فى أيامنا الثلاثة الأخيرة بها بموت المغفور له عبد الخالق ثروت باشا . ثم غادرناها إلى فيشى ، فأقمنا بها أربعة أيام سافرنا بعدها إلى مارسليا فإلى الإسكندرية لننخرط فى الحياة من جديد منتظرين أن نقى للصيف المقبل بنذرنا أن نقضيه مستشفين فى أوربا من مصابنا .

غير أن القدر المحسن ، القدر البار الرحيم ، رأت عدالته السامية أنا كفرنا خلال

سنوات أربع غما لا أدرى مما قد يكون فرط منا . وإنا لنى منتصف أبريل سنة ١٩٢٩ إذ عاودنا الأمل فى أمومة جديدة وفى أبوة جديدة : أمل كانت ثمرته هاته الطفلة التى تسعدنا وتتنفس ابتسامتها لنا عن أريج ما فى العالم كله من سعادة .

فليكن فى ذمة الله ما احتبسنا . ولتكن هذه البقعة الطاهرة فى صحراء القاهرة وسيلتنا إلى مغفرة من الله ورضوان . ولعل القدر الذى مد يده المحسنة فضمد بها جراحات قلوبنا ، يكون أبرَّ بنا وأحنى علينا . وشكراً لهذه البلاد والدول فى أوربا التى كانت لنا عزاء وسلوى ، وكان جمالها وفنها وعلمها كما كان اندماجنا فيها ونهلنا منها مصدر الوحى لما فى هذا الكتاب .

(انتهى)

obeikandl.com